

محاضرات السداسي الثاني

1-التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني¹

اختلط التصوف في الجزائر خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كما يقول أبو القاسم سعد الله بالبدع والشعوذة والخرافة، وأصبح عند البعض وسيلة للرشوة والفساد، وعند البعض الأخر وسيلة لاتخاذ الحضرة ونشر البدع واستغلال العامة، وبذلك لم يعد التصوف هو ذلك الذي كان عليه الأوائل الذين كانوا يجمعون بين العلوم العملية ومعرفة الله عن طريق العمل، والنظر والتدبر في خلقه، والذين لم يدعوا لأنفسهم كرامة ولا خارقة، وإنما كانوا متبعين للقرآن والسنة مكثرين من العبادة زاهدين في أحوال الدنيا. وقد انتشر التصوف في الجزائر قبل العهد العثماني لكنه شهد التطور والانتشار في هذا العهد بشكل ملفت للانتباه، ولعبت السلطة العثمانية دورا كبيرا في انتشاره واتساع نشاطاته، من خلال تشجيع رجال التصوف والسكوت عن السلوكات والتصرفات التي كان يقوم بها بعض المرابطين من سحر وشعوذة وابتزاز أموال الناس واستغلال سذاجة المجتمع حينئذ. وقد اختلط على شيوخ التصوف التصوف الحقيقي بالخرافة والبدع والسحر والشعوذة، وقد ذكر سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي عددا كبيرا من المرابطين ورجال التصوف الذين كانوا يؤمنون بالخرافة ويعتقدون في الكرامات والخوارق التي لا يقبلها عقل سليم، ومنهم الشيخ الحسين الورتلاني صاحب الرحلة الورتلانية، وقد تصدى بعض العلماء للدجالين والمشعوذين الذين يزعمون معرفة الغيب أمثال عبد الكريم الفكون الذي كشف أفعالهم المنافية للدين الإسلامي وللعرف في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وغيره من العلماء الذين جمعوا بين علوم النقل وعلوم العقل وعلوم الظاهر والباطن.² والظاهر أن عبد الكريم الفكون لم يكن ثائرا على فئة المشعوذين والدجاجلة فقط، بل كان ثائرا كذلك على المقلدين حيث يُذكر أنه كان يستدل بكلام أبي بكر ابن عربي وهو ينتقد صديقه أحمد المقري بأنه تنقصه الدقة العلمية واعتماده على الحفظ في

¹ دراسات عديدة ظهرت حول انتشار ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، نذكر منها كتابات أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي، وعبد الرحمان الجيلالي في تاريخ الجزائر العام، والمهدي البوعبدلي في الجزائر في التاريخ الجزء 4، العهد العثماني، إلى جانب دراسات ومقالات أنظر على سبيل المثال مقال مختار حبار: "الحضور الصوفي في الجزائر على العهد العثماني"، http://albordj.blogspot.com/2010/02/blog-post_18.html، أنظر كذلك، أطروحة دكتوراه لعبد القادر صحراوي: التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية ما بين القرنين ال16 و17، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2009.

خميسي ساعد: "حول حقيقة التصوف"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع 12، سبتمبر 2002، ص ص74-95، قسنطينة، الجزائر.

² المهدي البوعبدلي: جوانب من تاريخ الحياة الثقافي بالجزائر في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

قوله: "أن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما هو ما يظهر عند الحاجة إليه في الفتوى من الدراية، وإن السرد للمعلومات إنما حدث عند فساد القلوب بطلب الظهور والتعالي عن الأقران وكثرة الرياء في الأعمال."¹

وقد أشار عبد الكريم الفكون كذلك إلى الثورات والفتن التي عرفتها الجزائر في عصره (1580-1662)، وإلى تنافس العلماء على الوظائف، وشيوع الدروشة والحضرة والخرافات والبدع والمتاجرة بالدين، كما أشار إلى المصاهرات والمراسلات وتدخل السلطة في أمور الناس سواء في مدينة الجزائر أو في قسنطينة.

ويرجع أبو القاسم سعد الله عدم خوض عبد الكريم الفكون حسب اعتقاده في المسائل السياسية لا إلى قصر نظره أو عدم إطلاعه أو عدم اهتمامه، بل هو يشهد له بالعلم والذكاء والفتنة وحسن الإطلاع بحكم أسفاره، لكنه ربما يعود إلى أن العلماء في هذا العصر كانوا يريدون المحافظة على مكانتهم العلمية والدينية وعدم الخوض في الأمور السياسية، أو ربما انتمائه إلى الطريقة الزروقية (أحمد الزروق) التي تعتقد بوجوب السمع والطاعة لأولياء الأمر عامتهم وخاصتهم.

هذا وقد عرفت السلطة العثمانية كيف تستثمر في الواقع الاجتماعي في الجزائر خلال هذا العصر من خلال توظيف شيوخ الطرق الصوفية وأصحاب الزوايا لخدمة سياستها، ومن المهام التي كان المرابطون يقومون بها خدمة للمجتمع والسلطة على حد سواء نذكر:

- مرافقة قوافل الحجيج والتجار من أجل توفير الحماية وضمان عدم تعرض اللصوص وقطاع الرق لها.
- مرافقة الفرق العسكرية العثمانية أثناء تنقلها في الأقاليم، وحمل رواتب الجند وكذا المؤونة في مختلف المدن والمراكز والأبراج والحاميات.
- مراقبة الأمن العام في الطرقات والدروب والمسالك والأسواق.
- تقديم الوعظ والإرشاد في أمور الدين وإصلاح ذات البين
- التوسط للسكان لدى الحكام في قضاء حاجاتهم وتبليغ مطالب ومظالم السكان للحكام.
- الإحسان للفقراء والمساكين والمحتاجين حيث كان الزوايا والأضرحة ملاذ السكان أثناء الأزمات والنكبات (حروب وكوارث طبيعية).

-نشر التعليم والثقافة الدينية والمحافظة بذلك على هذا الموروث الحضاري من الضياع.

وقد ساهمت عوامل كثيرة في انتشار حركة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني يمكن حصرها في عوامل فكرية وسياسية واجتماعية، فالعوامل الفكرية تكمن في وجود أعلام التصوف الذين عملوا على نشر الطريقة في المغرب الإسلامي، وأثروا بسلوكهم وبمؤلفاتهم من أمثال الشيخ أبي مدين شعيب (الغوث)، وأحمد بن يوسف الملياني وعبد الرحمان الثعالبي.. ويضاف إلى ذلك تأثر كثير من العلماء الجزائريين بالتصوف المشرقي، الذي بدأ يسيطر بدوره على الساحة الفكرية بعد محاولة الإمام أبو حامد الغزالي التوفيق بين الشريعة والحقيقة، كما لا يمكن أن نتجاهل الدور الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في نقلهم للتصوف إلى

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 10.

البلاد المغاربية، سواء أثناء تنقلاتهم إلى الحج، أو زيارتهم للمعاهد العلمية، أو بعد لجوئهم إلى هذه البلاد عقب نكبة سقوط الأندلس.

وتتمثل العوامل السياسية في ضعف الوحدات السياسية التي كانت قائمة حينئذ، بسبب الصراع الذي سرعان ما دب في داخل كل أسرة حاكمة (الحفصية والزيانية) من جهة، والصراع بين هذه الوحدات والتقاتل فيما بينها من جهة ثانية، مما مهد الطريق أمام زحف المسيحيين الذين شنوا حربا على المسلمين في البر والبحر تحت شعار حروب الاسترداد كما رأينا من قبل، والتي كان من أبرز نتائجها سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس (1492)، ونتج عن ضعف المغرب العربي ازدياد التحرشات الإسبانية والبرتغالية على شواطئه، التي خضعت للاحتلال، فمال الشيوخ الدينيين إلى التصوف واعتكفوا في الصوامع والزوايا، في ظل غياب سلطة سياسية قوية حقيقية لمواجهة الخطر الخارجي الداهم، والتفتت الشعوب بالمتصوفة والشيوخ الدينيين لتولي مهمة الدفاع والجهاد ضد الغزاة، واتجهت إليهم الأنظار كبديل عن السلطة السياسية الغائبة، وتاقت إليهم النفوس ونظر الناس إليهم كمنقذين لهم، ووجد هؤلاء في السكان سندا ودعما قويا للمضي قدما نحو محاولة تحرير السواحل أو على الأقل الحيلولة دون امتداد الاحتلال إلى المناطق الداخلية. ولما ظهر الأتراك العثمانيين على مسرح الأحداث كقوة ضاربة وقفت في وجه المد المسيحي ورفعت راية الجهاد ضد الكفار المعتدين، عاد المتصوفة إلى زواياهم للممارسة العبادة والتعليم والتصوف بعد أن ساهموا في ترسيخ أقدام الأتراك العثمانيين في البلاد وتأسيس إيالة الجزائر على يد خير الدين بربروس باشا سنة 1519. فالتصوف كان منتشرا في الجزائر قبل الوجود العثماني، لكنه ازداد انتشارا ونشاطا بتشجيع من السلطة العثمانية.¹

ولعل من الأسباب القوية التي ساعدت على انتشار التصوف في الجزائر قبل العهد العثماني هو سقوط الدولة الموحدية التي طالما واجهت الخطر المسيحي لفترة طويلة من الزمن. كما أن سقوط الأندلس نتيجة لتدهور الذي أصابها عقب سقوط الدولة الأموية، ونتج عن سقوط الأندلس أمران هما: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية أولا، وهجرة كثير من متصوفة الأندلس إلى الجزائر حاملين معهم تصوفهم، فأثروا على الحياة الدينية في الجزائر.

وقد لخص أبو القاسم سعد الله واقع الجزائر مع التصوف خلال العهد العثماني في قوله: "وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى ظن الناس أن هناك سياسة عامة متبعة، فكثرت الأضرحة والقباب ودخلت الطرق الصوفية من المغرب والمشرق، وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون ينشرون أفكارهم وأورادهم بين الناس، وأصبحنا لا نكاد نجد مدينة أو قرية بدون العديد من الزوايا والأضرحة والمشاهد، وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويتقربون، يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح، آتين من كل فج، وأصبح المشاهد المحايد لا يعرف وهو أمام ذلك هل يشاهد مآدب أو مآتم، وهل العابدون يعبدون الله أو يعبدون الشيوخ والمرابطين، وهكذا غرقت الجزائر في هذا العهد في التصوف

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 136-138.

والدروشة، وأصبح العلماء يتباهون بأخذ الأذكار والخرقة والسبحة والمصافحة والأسودين (التمر والماء)، وأصبح الحكام يظهرون كل الاحترام والتبجيل لأهل التصوف الحقيقي والكاذب معا، أما العامة فلا نسل عن أحوالها وعقائدها ومستواها الخلقي والاجتماعي."

ولعلنا الآن نتطرق إلى أهم الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في الجزائر خلال هذا العهد بإيجاز.

2-أهم الطرق الصوفية:

1-الطريقة القادرية:

تعد الطريقة القادرية من أقدم وأهم الطرق التي عرفت انتشارا كبيرا في الجزائر خلال العهد العثماني وبعده، وتمثلها عدة زوايا نذكر منها زاوية كنتة التي يعتبر الشيخ المختار الكنتي أحد أبرز رجالها (توفي سنة 1826)، وقد قدر أحد الكتاب الفرنسيين أتباعها في نهاية القرن 19م: ب24 ألف تابع، و558 مريد و33 زاوية، كما مثلتها زاوية القيطننة بنواحي معسكر التي أسسها الحاج مصطفى بن المختار الغريسي¹ جد الأمير عبد القادر (توفي سنة 1784م)، ثم تولى أمرها بعده والد الأمير عبد القادر الشيخ محي الدين ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأكبر محمد العيد، وعرفت هذه الطريقة بقيادتها المقاومة المسلحة في بداية الاحتلال الفرنسي بقيادة الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر، تعاونت معها عدة طرق صوفية أخرى كالرحمانية والطيبية والدرقاوية والشيخية. وبعد انتقال زعماء هذه الطريقة إلى فرنسا وإلى المشرق العربي تفرعت في شكل قيادات صغيرة واصلت مهمة الجهاد ضد العدو الفرنسي، نذكر من أبرز الشيوخ الذي قادوا المقاومة سيدي محمد بن عودة في نواحي غيليزان ومحمد الطيب في نواحي ورقلة، وابن نحال في قالمة. وأسس الشيخ ابراهيم بن أحمد زاوية في نفطة، كما أسس الشيخ محمد المازوني زاوية قادرية كذلك في الكاف بتونس.

2-الطريقة الشاذلية :

هي طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، وإن كانت تختلف عنها في سلوك المريد وطريقة تربيته بالإضافة إلى اشتهارهم بالذكر المفرد "الله" أو مضمراً "هو".²

3-الطريقة الكرزازية:

وهي فرع من فروع الطريقة الشاذلية، وتنسب إلى الشيخ أحمد بن موسى الحسني الشريف مولى كرزاز، الذي يتصل نسبه بالولي الصالح عبد السلام بن مشيش، ولد أحمد بن موسى سنة 1505م وعاش إلى أن تجاوز المئة سنة إذ توفي في حدود عام 1616م، اشتهر بالعلم والصلاح والشرف، وأخذ الطريقة الشاذلية اليوسفية عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الشهير، وعن خليفته فيما بعد محمد بن عبد الرحمان السهيلي، ثم صار مقديما للطريقة بالمنطقة الغربية.³

¹ أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1980، ص 182.

² لمزيد من المعلومات أنظر، محمد نجيب الراهم: أبو الحسن الشاذلي الولي: سيرته مقامه وزواره، مكتبة العجيلي، زغوان ، تونس، 1987.

³ فقير بوشيخي: الطريقة الكرزازية الأحد 24 مايو 2009 <http://sidicheikh.yoo7.com/t>

أضاف هذا الشيخ إلى أورد الطريقة الشاذلية قراءة البسمة 500 مرة بعد أذكار صلاة الصبح، واشتهرت الطريقة بالطريقة الكرزازية أو الأحمدية نسبة إليه، وعرفت شهرة واسعة في المنطقة وامتد نفوذها إلى مختلف (المناطق المجاورة، وأكثر أتباعها في تلمسان وعين تموشنت. وذلك نظرا لمجهودات الشيخ المؤسس في التعليم والإكرام والصالح، إذ كانت الطريقة تقوم بنشر العلم بواسطة زاويته التي أنشأها في كرزاز، كما كانت الطريقة تساهم في حماية الطرق من اعتداء اللصوص، وكانت على صلة وثيقة بالطريقة الزيانية التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان القنادسي.

4- الطريقة الشيخية:

وهي فرع من فروع الشاذلية، تنسب إلى الولي الصالح عبد القادر بن محمد سيدي الشيخ بن سليمان بن أبي ساحة الذي توفي سنة 1616م، ويرتقي نسبه إلى سيدنا أبو بكر الصديق، نزحت الأسرة من مكة في وقت غير معروف، إلى تونس لأسباب دينية وسياسية، ومن تونس خرج جدهم غاضبا لأسباب عائلية وذهب إلى الصحراء واستقر بمنطقة البيض بعيدا عن الخلق، وهناك أسس زاويته المعروفة، وتوارث أبناؤه تراثه في آخر دولة بني زيان واحتلال الإسبان للمنطقة، أما والد الشيخ عبد القادر فهو محمد بن الولي الصالح العلامة المحدث الفقيه سليمان بن أبي سماحة دفين بني ونيف توفي سنة 1540م. تلقى تعليم القرآن والفقه ومبادئ العربية على يد عدة فقهاء فغيغ، وعندما شب وترعرع تأثر بالصوفية وعلومها، فسلك في البداية الطريقة القادرية، ثم تحول إلى الطريقة الشاذلية التي أخذها عن الشيخ أحمد بن موسى الكرزازي، والشيخ محمد بن عبد الرحمان السهيلي، وبعد سلوكه أمره شيخه السهيلي بالتنقل إلى بلدة فغيغ، وهناك أنشأ زاوية أطلق عليها اسم "العباد" تيمنا بالعباد ضريح الشيخ أبي مدين الغوث، وقصده الناس من جهات عدة، وأصبح يدعى سيدي الشيخ واتسعت شهرته اتساعا عريضا وبلغت آفاق الدنيا.¹

إن زاوية الشيخ عبد القادر السماحي قامت على قاعدة عريضة جدا، غطت جميع شرائح المجتمع المتفاعلة في فغيغ وامتداداتها، بل إن شهرتها تجاوزت هذه الحدود إلى تافيلالت وتادلا وأقصى جنوب المغرب الأقصى، وتعدتهما إلى خارجه-أيضا- إنها كانت أكثر تنظيما من أي زاوية في المنطقة، واستقر أخيرا في "مغار التحتاني" ، وكانت وفاته ببلدته سنة 1616 كما سبق الذكر ودفن بالحاسي لبيض الذي حمل منذ هذا التاريخ لبيض سيدي الشيخ، وأنشأ خلفه زاوية هناك عرفت شهرة كبيرة في ظرف وجيز، وأصبحت هي الزاوية الأم للطريقة الشيخية.

والطريقة الشيخية هي طريقة إسلامية سنية صوفية، تحث على طاعة الله عز وجل والالتزام بالسنة المطهرة، وهي طريق قويم وصراط مستقيم تهدي إلى السبيل والهدى، جامعة بين الشريعة والحقيقة، مبناها على طلب العلم، واحترام العلماء والفقهاء والفقراء، وكثرة ذكر الله تعالى مع الحضور، إذ هي من أقوم وأبسط وأنفذ وأقرب الطرق الصوفية إلى الله عز وجل، فمن سلكها وصل إليه تعالى مصاحبا بالسلامة محفوظا

¹ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000 .

بالكرامة، لأنها متمسكة بأداب الشريعة التي تحث على فضيلة الوسط بلا مجاهدة ولا كثرة الجوع، ولا كثرة السهر ولا طقوس.

تقع الزاوية المركز الأم ببلدية لبيض سيدي الشيخ، وهي التي يوجد بها ضريح سيدي الشيخ المؤسس. وتنتشر هذه الطريقة الصوفية بين عدد كبير من المريدين بالمغرب العربي وأوروبا، أين ينتشر أولاد سيدي الشيخ والقبائل التابعة لها كالشرفاء، المهاية، العكارمة، أحميان، العمور، أولاد جرير، بني مطهر بني كيل القرارشة، الشعانية، الأغواط وغيرها من القبائل. وما يميز أتباع الطريقة الشيخية أنهم يحملون سبحة تتميز بوجود حبة من المرجان بعد حبة السبحة الخمسين، إن سبحة أي مريد في الطريقة الشيخية شعارها المرجانة، وقد عرف عن هذه الطريقة قيادتها المقاومة ضد الاستعمار في منطقة الجنوب الوهراني بزعامة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 انتشرت الثورة ولم يتمكن الاستعمار من القضاء عليها إلا بعد أن كبته خسائر فادحة في الأموال والمعدات والأنفس، وتعتبر الثورة التي تزعمها الشيخ بوعمامة في الجنوب والتي انطلقت سنة 1882 واستمرت حتى سنة 1902 امتدادا لهذه الثورة.¹

5- الطريقة الطيبية:

من فروع الشاذلية، أسسها مولاي عبد الله بن براهيم الشريف توفي سنة 1678 وهو من أشرف المغرب الأقصى بمدينة وزان، ولما توفي تولى ابنه محمد مشيخة الزاوية وبعده تولى الطريقة محمد ثم أخوه مولاي الطيب، الذي ظل على رأس الطريقة من سنة 1715م إلى 1775، وصارت الطريقة تنسب إليه ومن أهم مصادرها: تحفة الإخوان بمبادئ مناقب شرفاء وزان لحمدون بن محمد الفاسي، وكتاب الكوكب الأسعد لمحمد بن محمد المكناسي، وانتشرت في المغرب الأقصى وفي سهول الناحية الوهرانية وكذلك في منطقة طرارة الجبلية.

وقد استطاع شيوخ هذه الطريقة كسب تأييد ومساندة شيوخ قبائل المخزن الوهراني (الدواير والزمول)، كان مركز الطريقة في القطر الجزائري مدينة وهران، وبلغ عدد أتباعها في الجزائر سنة 1956 حوالي 50 ألف تابع.²

6- الطريقة التيجانية:

أسسها سيدي أحمد بن المختار بن سالم التجاني (توفي سنة 1814م)، وهي من أهم الطرق التي شددت الناس إليها، لأنها كانت من بين الطرق التي ثارت في وجه الوجود العثماني، اتخذت طابعا حضريا لتركزها في عين ماضي وقصور الصحراء، وهذا ما ساعدها فيما بعد على الانتشار عن طريق التجارة في واحات الصحراء وبلاد السودان. لكنها لم تستطع التوسع شمالا حيث التجمعات الكثيفة للسكان لحذر القادرية منها، ولعداوة درقاوة لها ولمواجهة باي وهران لشيوخها في أول محاولة لهم في التمرکز في التل الوهراني. فاضطر مؤسسها

¹ إدوارد دونوفو: الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق كمال فيلاي، دار الهدى، 2003.

² Louis Rinn : Marabouts et Khouanes, op, cit, p 343.

سيدي التجاني إلى التحول نحو فاس، فحظي بعناية سلطان المغرب مولاي سليمان، وقد تجدد نشاط الطريقة في الجزائر بعد وفاة مؤسسها في فاس سنة 1815 ورجوع خلفه الى عين ماضي.¹

7-الطريقة الدرقاوية:

تنسب إلى الشيخ محمد العربي (توفي سنة 1823)، وتتميز عن الطريقة الشاذلية بالدعوة إلى جمع كلمة المسلمين على مبادئ بسيطة في التصوف وصرْفهم عن مغريات الحياة وحثهم على تفادي وتجنب أصحاب السلطة، وتربيتهم على الطاعة لشييوخهم، وبث الحماس في نفوسهم لمواجهة الخصوم، وقد وجدت هذه الطريقة أتباعا كثيرين في الجهات الوسطى والغربية من البلاد الجزائرية بإقليم التيطري والناحية الوهرانية، وكان لدعاتها دور مهم في الأحداث التي شهدتها الجزائر في مستهل القرن التاسع عشر، بعد أن نجح كل من ابن الأحرش في شمال قسنطينة وعبد القادر الشريف الدرقاوي في الناحية الغربية في إثارة السكان ضد السلطة العثماني.

أعلن أتباع الطريقة الدرقاوية الثورة ضد الأتراك بزعامة مقدم الطريقة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي في الغرب الجزائري، ف اتخذت حركتهم طابع انتفاضة شعبية وحركة وطنية استطاعت فيها جموع القبائل مواجهة قوات البايك وإلحاق الهزيمة بفرق الإكشارية في عدة معارك أهمها، معركة فرطاسة في صيف 1805، وبذلك سيطروا لبعض الوقت على مجمل الريف الوهراني من الحدود المغربية إلى نواحي مليانة، واستولوا على مدينتي معسكر ومازونة وفرضوا الحصار على مدن تلمسان وهران ومستغانم.

وهذا ما تطلب من البايات الذين تعاقبوا على حكم الناحية الوهرانية بذل جهود مستميتة لإخماد حركة عصيان درقاوة وإرغام زعيمها عبد القادر بن الشريف على القبول بالهزيمة والتحول إلى المغرب الأقصى سنة 1818، لتقطع أخباره بواحة الفغيغ.²

¹ إدوارد دونوفو: الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق كمال فيلاي، دار الهدى، 2003.

² حول هذه الطريقة وثورتها على الحكم العثماني راجع، أبو راس الناصري: درء الشقاوة في فتنة درقاوة نقلا عن المقدمة التي وضعها المهدي البوعبدلي في الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لابن سحنون الراشدي، قسنطينة، 1973، ص 46. وكذلك، - محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1979، ص 207.

الشيخ أحمد المبارك: تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق نورالدين عبد القادر، الجزائر، 1952، ص 13.

Adrien Berbrugger : un Chérif Kabyle, in RA, T3,1858, p211.

أنظر أحمد الشريف الزهار المصدر السابق ص ص 84- 85. ومحمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، نشر وتعليق ممدوح حقي، بيروت، 1964، ص 117.

Ch. Féraud : Zebouchi et Osman Bey, in RA n° 6, 1862, p121.

Eugène Vaysettes : Histoire de Constantine sous la domination Turque, pp164-171.

3- الزوايا في الجزائر خلال العهد العثماني:

الزاوية لفظ مأخوذ من الانزواء بقصد العكوف على العبادة أو تلقي العلم بعيدا عن دنيا الناس ومشاغلم اليومية، وهي أيضا برباط المجاهد في سبيل الله وحافظ الثغور، ويطلق على بناء أو مجموعة أبنية ذات طابع ديني، وهي تشبه المدرسة في تخطيطها وأجزائها ووظيفتها التعليمية، وقد ذكر دوماس Daumas عام 1847 في كتابه تعريفا للزاوية حيث قال: "إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضياف.

تمثل الزاوية مؤسسة دينية واجتماعية وعلمية تبلورت أنشطتها وخصوصياتها منذ استقرار الإسلام إلى الآن، وتعد مركزا من مراكز التربية الصوفية السنية، ومعهدا لتزكية النفوس وتطهيرها، ولذلك كان الشيوخ وقادة المتصوفين يتنافسون في بناء الزوايا وتشييدها لأجل أداء وظيفتها الاجتماعية من إيواء الغرباء وإطعامهم وأداء الواجبات الدينية من صلاة وصدقة وذكر وتلاوة القرآن وتعليم وتعلم وغير ذلك. انطلاقا من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، دخلت الزاوية مرحلة أخرى من التطور حيث أصبحت مكانا يقصده الناس لزيارة الشيخ الصوفي والتبرك به، التماسا للدعاء ويدفن بها عند موته، وتنتقل إدارة الزاوية إلى احد أبناء الشيخ المؤسس، أو أحد أقاربه، تماما كما حدث لزاوية يعقوب بن عمران البويوسي التي انتقلت مشيختها إلى ابنه الشيخ يوسف بن يعقوب، وكزاوية علي بن أحمد المجاجي التي انتقلت رئاستها إلى ابنه محمد بن علي أهلول المجاجي¹.

ليس بين أيدينا إحصائيات رسمية لكل الزوايا والطرق الصوفية التي تنتمي إليها في الجزائر، فإن ذلك لا ينفي أن عددها كان كبيرا مع نهاية العهد العثماني، ونذكر على سبيل المثال أن مدينة قسنطينة وحدها كان بها زهاء 16 زاوية، ومدينة تلمسان كان بها ما يزيد عن 30 زاوية، وأما بمنطقة القبائل فقد كانت من أكثر جهات البلاد كثافة من حيث عدد الزوايا إذ بلغ عددها نحو الخمسين زاوية، هذا في شمال البلاد أما جنوبها فلم تكن تخلو عشيرة منها، بل لقد كانت الزاوية ترحل أحيانا مع الراحلين مثل زاوية سيدي الشيخ الذي اضطرتة الخلافات المذهبية إلى التنقل بزوايته، ولقد ساعد العثمانيون الصالحين ببناء الزوايا والرباطات²، وأنفقوا في سبيل ذلك بسخاء، فرتبوا لبعضها أوقافا خاصة وأعفوا المقربين منها من الضرائب، ومنحوهم حرمة وحصانة، فالمستنجد بحماهم لا يلحقه أذى ما دام في حى الشيخ³ طبيعة العلاقة بين السلطة والطرق الصوفية: تجسدت العلاقة بين السلطة والطرق الصوفية بالتحالف تارة والتخالف تارة أخرى، فعلاقة التحالف بدأت مع نهاية القرن 15 م نوعا ما وطيدة لتقارب المصالح بين الجانبين، حيث كانت الطرق الصوفية تساعد على تحميس لجماهير في التجنيد ومساعدة العثمانيين على قتال العدو المشترك (الإسبان)، ومحاربة الحكام المتخاذلين المتعاونين مع العدو، والمقاومين للعثمانيين (الحفصيين في الشرق والزيانيين في الجهة الغربية)،

¹ لمزيد من التفاصيل حول هذه الطريقة أنظر، قاسمي، عبد المنعم الحسني: الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول ولآثار منذ ظهورها إلى الحرب العالمية الأولى، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008-2009.

² العيد مسعود: "المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ع 10، 1988، ص4.

³ حمدان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005 ص 166 .

والعثمانيون كانوا يدعمون الحياة الاقتصادية لأصحاب الطرق الصوفية، ويحفظون لهم امتيازاتهم ولذلك يعتقد الدكتور أبو القاسم سعد الله أن كلا الطرفين استفاد من التحالف مع الآخر، بل كان للعثمانيين الحظ الأوفر من هذه الفائدة. لكونهم استطاعوا بسط نفوذهم على البلاد، والتحكم فيها فيما بعد بأقل الخسائر الممكنة، ومن النماذج التي ساقها المؤلف عن هذا التحالف نذكر تقريب أسرة الفكون في مدينة قسنطينة والتحالف مع الشيخ بن يوسف الملياني. وأما علاقة التحالف والاصطدام بين الطرفين فقد بدأت في مطلع القرن 19م الذي يوصف بفترة الانتعاش الاقتصادي بفضل غنائم البحر، واستتباب السلطة في أيدي العثمانيين ما جعلهم يعرفون بشكل أو بآخر عن الاستعانة بالمتصوفين، ومن رجال الدين الذين عارضوا السياسة العثمانية القائمة على الظلم والسيطرة محمد بن سليمان الجزولي، والشيخ أحمد بن الصخري في الجنوب الصحراوي، والشيخ عيسى الثعالبي وغيرهم.

كما انتشرت الزوايا في منطقة القبائل الكبرى والصغرى انتشارا كبيرا، خصوصا بعد احتلال الإسبان لمدينة بجاية، وخروج الكثيرين من أبناء المدينة إلى الجبال المحيطة بها على أمل المراقبة والعودة، فقاموا بتأسيس الزوايا في بني وغيليس وحوض الصومام وبني يعلى وغيرها من الأماكن، وقد بلغ عدد الزوايا في منطقة القبائل وحدها أكثر من 50 زاوية كما سبق الإشارة، وكانت الزوايا عامرة بالكتب والمخطوطات فزاوية الشيخ إبراهيم التازي بوهران كانت بها خزائن الكتب وآلات الجهاد، وكانت زاوية الشيخ سيدي التواتي في بجاية ملجأ للمجاهدين الأتراك العثمانيين ضد الغزاة الإسبان، حيث نزل عنده كل من كمال رايس البحارة الشهير وقريبه البحار والجغرافي ييري رايس نزلا عنده ضيوفا في حوالي سنة 1491م، كما ظهرت زوايا في الجنوب الجزائري قام بتأسيسها، قام بتأسيسها رجال عرفوا بالصلاح والتقوى، كالزاوية الزيانية بالقنادسة، وزاوية الأعمش بتندوف، وزاوية كنتة بأدرار وزاوية علي بن عمر بطولقة.. إلخ

وعرفت الزوايا مع مرور الوقت تطورا إيجابيا في وظائفها من التعليم إلى العبادة إلى حل قضايا ومشكلات المجتمع، وتقديم الخدمات لعابري السبيل، وإيواء الفقراء والمساكين والمنكوبين، ومما يؤكد دور الزوايا في مجال التربية والتعليم ما قاله الأستاذ باعيز بن عمر في المحاضرة التي ألقاها في نادي الترقى في الجزائر العاصمة فبعد أن قسم الزوايا إلى مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد علمية قال: "أسست لقراءة القرآن وما إليه من العلوم الموصلة إلى استخراج كنوز أسرارهِ ومعانيهِ"، ثم يضيف: "ونحن لم نعرف في بلاد زاوية مدرسة في هذه الزوايا، فتاريخها في الجملة يرجع إلى عصر قديم، وهو عصر ازدهار الإسلام بشمال إفريقيا عموما ومنطقة زاوية خصوصا، وإليها يعود الفضل في إعلاء شأن الإسلام وحفظه في هذه البلاد ولا شيء آخر".

مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا له، بالرغم من أنه كان منتشرا قبل وبعد هذه الفترة، ولقد شجع العثمانيون رجال التصوف، وأهل الطرق الصوفية وذلك

بانحيازهم إلى جانبهم في بداية الأمر، وفيما بعد شاركوا بفعالية في بناء الأضرحة والقباب والزوايا وخصصوا لها جزءاً من أوقافهم، وفي دال السجل الوطني عدد من الوثائق التي تدل على هذه المشاركة السخية.¹

4- حقيقة الخلاف بين الفقهاء ورجال التصوف:

في البداية يجب التذكير أنه أغلب العلماء والفقهاء مارسوا التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، وكان العلماء هم في الوقت نفسه رجال الدين، وكل عالم متصوف وليس كل متصوف عالم، والجزائر كغيرها من البلاد العربية الإسلامية وقع فيها الخلاف بين العلماء والمتصوفة، حيث كان العلماء الين ارتكزوا في علمهم على العلوم العقلية (علوم الظاهر) كما رأينا من قبل دون ان يهملوا أو يغفلوا الاهتمام والعناية بالعلوم الدينية (علوم الباطن)، بطبيعة الحال فوقع الخلاف بين الطرفين وهو خلاف ليس في العقائد في بعض المظاهر والممارسات والسلوكات.²

وكان غلبة المنقول على المعقول ظاهرة عامة تشترك فيها سائر البلاد العربية والإسلامية، ففي تونس مثلاً عبر أحد الشعراء عن هذه الظاهرة في بيتين من الشعر جاء فيهما:

كل العلوم سوى القرآن زندقة
إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
والعلم منبعه من قال حدثنا
وما سوى ذلك وسواس الشياطين

ومرد الخلاف بين العلماء والمتصوفة حسب أبو القاسم سعد الله إلى أن الفقيه كان أكثر واقعية من المرابط، وكان أكثر احتكاكاً بمشاكل الناس، بينما كان المرابط غارقاً في الروحانيات بعيداً عن قضايا الناس وانشغالاتهم اليومية، وكان كل منهم يتهم الآخر بالفسوق والإلحاد والزندقة، وإذا كان الفقهاء يدرسون العلوم العقلية للمساعدة في فهم القرآن والحديث ومشاكل الناس، ومن ثمة سهولة الوصول إلى حلول لمشاكلهم، فإن المرابطين والمتصوفة كانوا يكتفون بدراسة العلوم النقلية وبعضهم انتقلت إليه الولاية عن طريق الوراثة، وكان البعض قد جمع بين علوم الظاهر والباطن، واتخذوا موقف وسطي ويمثل هذا الاتجاه العالم أبو راس الناصر³ وأحمد بن عمار وملفتي ابن العنابي وأحمد ساسي البوني والحسين الورتلاني وغيرهم.⁴

5- الزوايا ودورها التعليمي والجهادي:

تميز العهد العثماني في الجزائر بكثرة الزوايا التي كانت منتشرة في المدن كما في الأرياف، ولعل مما ساعد على انتشارها تشجيع الحكام العثمانيين لهن وقد لعبت دوراً فعالاً خاصة في نشر التعليم والوعي الديني، كما لعبت دوراً مهماً في الجهاد والدفاع عن البلاد ضد الأعداء، حيث تحولت إلى ثكنات عسكرية، فكان المتصوفة يتصدرون المقاتلين، وكانت الزوايا تتحول في حالات الحرب إلى رباطات ومأوى للمجاهدين فتقدم بهم

¹ محمد علي دبو: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، الجزائر، 1971، ص 42.

² لمزيد من المعلومات حول الخلاف بين العلماء والمتصوفة راجع، ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 163 وما يليها.

³ لمزيد من التفاصيل حول هذا العالم أنظر دراسة عبد القادر بكاري: " رحلة الفتوحات الناصرية بمفتاح العلوم الحربية لمحمد أبي راس الناصري"، بحوث ودراسات تاريخية أعمال مهدة للأسناد لعמיד عبد العزيز، مطبعة نواصري، المسيلة، الجزائر، جويلية 2017. ص ص 343-356.

⁴ أبو القاسم سعد الله: "أربع رسائل بين بشوات الجزائر وعلماء عنابة"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، الجزائر، ع 51، ص ص 13-19.

الطعام وتسهر على راحتهم، وكانت صلة الزوايا بالسكان في البوادي والأرياف أكثر من صلة السكان بالسلطة، فكانت تتحول في فترات السلم إلى مراكز للتعليم والثقيف، وسعى الحكام إلى التقرب من شيوخ هذه الزوايا ومنحهم حمايتهم وحصانتهم وجعلوهم وسطاء بينهم وبين السكان.¹

وكانت الزوايا في الأرياف تحظى باحترام العامة وتقديسهم، حيث كانوا يخصصونها بجزء من إنتاجهم الفلاحي والصناعي (أفرشة وأغطية وبرانس وغيرها مما كانت تنتجه العائلات الريفية)، وكان الزوايا بدورها لا تبخل على الفقراء والمساكين بتوفير الطعام وتوزيعه لاسيما أيام الأعياد والمناسبات الدينية حيث كانت سخية بما كانت توفره من كسكسي باللحم والثريد والعسل والزبدة وكل ذلك كان من صدقات المحسنين وهباتهم.

ومن أشهر الزوايا خلال العهد العثماني نذكر زاوية خنقة سيدي ناجي وخلوة سيدي عبد الرحمان الأخصري بنواحي بسكرة، وزاوية محمد بن علي المجاجي المعروف بالشيخ أهلول بتنس، وزاوية القبطنة في معسكر، وبن علي الشريف في شلالة بنواحي أقبو، وزاوية محمد بن عبد الرحمن الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية بقرية آيت سماعيل، وعبد الرحمان اليلولي وابن دريس في نواحي تيزيوزو، وزاوية محمد التواتي في بجاية وسيدي يحي العيدلي في تاموقرة وسيدي منصور بنواحي بجاية، وزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر، وغيرها من الزوايا التي يطول الكلام بذكرها كلها.

إن قراءة وصية الولي محمد السنوسي لأتباعه بضرورة العناية بالأولياء والصلحاء المعاصرين بدل الاهتمام بالغابرين، توحى بأن المتصوفة كانوا يولون اهتماما بالغا بالأولياء السابقين، فقد قال: "إن النفوس في هذه الأزمنة المتأخرة قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح ورياضة النفس عنها أن الولاية قد طوى بساطها، فترى أن لاجتهاد لا فائدة فيه، وقد اهتم العلماء في تدريس التصوف في دروسهم خلال العهد العثماني، كما اهتموا في تأليفهم بالتأريخ للأولياء والصلحاء، سواء الذين عاصروهم أو، أولئك الذين سبقوهم فمن يطلع على رحلة الورتلاني سيلمس حقيقة هذا الكلام، وكان التصوف من أبرز المقررات التي كان يعتني بها العلماء.²

هذا وقد تميز الإنتاج الفكري في هذا العهد بغلبة التأليف في علم التصوف ورجاله، فقد أورد الورتلاني في رحلته أن الذي جعله يهتم بدراسة التصوف ويكثر منه مقال للإمام مالك بن أنس من أن الصوفي الذي لم يدرس التصوف يعتبر زنديقا، وان عالم أصول الدين الذي يدرس التصوف يعتبر فاسقا.

وقد اختلط التصوف بالسحر والشعوذة وادعاء علم الغيب خلال العهد العثماني كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون في منشور الهداية، وعبر عن الفساد الذي كان منتشرا في بداية العهد العثماني في الجزائر الولي الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الشهير حين قارن بين عصره وعصر عبد القادر الجيلاني في قوله أن جيل الجيلاني كان في القرن السادس والزمين غير فاسد وأهله فضلاء، وبينما كان هو (أي الملياني) يعيش في القرن العاشر الهجري المليء بالفساد وانحطاط الأخلاق. ولعل الفساد الذي تحدث عنه الميلاني راجع إلى الجهل بتعاليم الدين الإسلامي والفهم الخاطيء للدين. وأمام تردي الأوضاع واستفحال أمر بعض الآفات الاجتماعية وكثرة الدجالين وأدعياء التصوف والولاية، تعالت أصوات بعض العلماء والصلحاء

¹ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار الغرب، بيروت، 2005، ص 208.

² أنظر الورتلاني في رحلته، المصدر السابق.

بضرورة إصلاح الوضع قبل فوات الأوان، وتصدى بعضهم لمظاهر الفساد ولو باستعمال القوة، ولعل الشيخ عبد الكريم الفكون من أبرز الذي امتلكوا الجرأة والشجاعة لفضح أفعال الزنادقة والدجالين في منشور الهداية السابق الذكر، ورغم تشدده في إبراز الفساد الذي كان متفشيا وهو اتهام غير مباشر للسلطة بتقصيرها وتواطؤها أحيانا في التشجيع على هذه السلوكات، إلا أن هذه السلطة في الواقع لم تتعرض للشيخ بالعقاب أو المضايقة، حيث اتهم الفكون هؤلاء المتصوفة المزيّفون باستغلال الدين لتحقيق أغراض دنيوية وابتزاز أموال الناس. فقد أشار في مقدمة كتابه إلى دواعي كتابته منها انتشار البدع وسيادة الجهل، وكساد العالم وانحراف أهل الطرق الصوفية عن التصوف الحقيقي، وتحالفهم مع الظلمة واللبصوص والولاية الفاسدين، واعتبره جميعا أنصارا لحزب الشيطان، ودعا إلى ضرورة التصدي لهم ومحاربتهم، واعتبر الوقوف في وجه هؤلاء جهاد أحد من السيف في نحور أعداء الله، وأشار إلى أفعالهم منها شراء المناصب ودفع الرشوة وتحليلها، وادعوا أن علم الغريب للعامة فسلبوهم عقولهم وقلوبهم، فعظموهم وقدسوهم وبعد مماتهم بنوا عليهم القباب وبجلوهم، كم إلى أن الرجل الصالح هو المواظب على الطاعات المتجنب للنواهي والمتشابه به، والمتتبع لكتاب الله وسنة رسوله (ص) وعلماء هذه الأمة¹.

واعتبر العلماء والصلحاء والأولياء أمثاله أن البدع هي خروج عن الدين، وأن التكسب باسم الدين هو جناية وليس ولاية. وكان العلماء يعتقدون في الكرامات والخوارق، فما بالك بالعامة من الناس وهم أكثرهم وأعلمهم تدينا، فهذا احمد بن ساسي البوني وهو ممن جمع بين العلم والتصوف يقول أن الإنسان مسير فلا حاجة أن يثور ضد الظلم ويرفض الفساد مادام مسير.

كل الأمور لمبديها وخالقها فما إلى العبد تخير وتديير
فرب رأي نراه نافعا حسنا وما حديث، لعمرى فيه تديير

وهذا الورتلاني وهو من العلماء والمتصوفة نجده يغرق في تصديق الكرامات والخوارق ويدعو على الإيمان والاعتقاد بها ويتوعد من لا يفعل ذلك بالعذاب والعقاب، كما كان يعتقد أن الأولياء أحياء في قبورهم، وكان العالم الشيخ أحمد زروق البرنوسي شيخ العالم أحمد بن يوسف الملياني، ويعد العالم محمد بن علي الخروبي أحد اقطاب التصوف في الجزائر يمثل نموذج لامتزاج التصوف بالسياسة وكانت له حظوة لدى السلطة.²

وقد وصف الشيخ عبد الرحمن الأخضرى (ت:983=1575) حالة التصوف في أبيات شعرية بليغة ولها

دلالاتها:

أه على طريقة الكمال أفسدها طوائف الضلال
أه على طريق أهل الله أه على طريق حزب الله
طريقة أفسدها أهل البدع فتركت مهجورة لا تتبع
طريقة أفسدها الفجار فكثروا وانتشروا وثاروا

¹ لمزيد من التفاصيل راجع، عبد الكريم الفكون: المصدر السابق.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 423-433.

وظهرت في جملة البلاد

طائفة البلع والازدراد

ووافقته على هذا الوصف الأخير شيخ مكي اسمه شهاب الدين المرشدي فقال فيما نقل عنه الميلي:

صوفية العصر والأوان

صوفية العصر والأواني

وسئل أحد شيوخ القادرية في طرابلس الشام عن كثرة الطرق وتعدد شيوخها فقال: «تغيير شكل لأجل

الأكل»¹.

6-ثورات الأهالي ضد الحكم العثماني وموقف العلماء:

عرفت الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية سنة 1520 قيام العديد من الثورات وحركات التمرد والعصيان قادها في البداية الأمر زعامات سياسية محلية أو شيوخ قبائل ومرابطين، وأحيانا زعماء أسر وعائلات وقد اختلفت دوافع وأهداف هذه الثورات، فقد اتخذت الطابع الاقتصادي والاجتماعي والديني والسياسي. وهناك من الثورات من قادتها قبيلة كثورة ابن الصخري في الجنوب الصحراوي (1737) أو طريقة صوفية كثورتي الشريف ابن الأحرش المدعو البودالي في بايلك الشرق، وابن العربي الدرقاوي في الغرب الجزائري، كما قد تكون لها دوافع شخصية أي عداة شخصي للسلطة كما وقع مع مرابط رجاس المدعو عبد الله الزبوشي في نواحي ميللة مع الباي نعمان حيث انضم هذا المرابط إلى جانب الثائر ابن الأحرش بعد أن قام الباي المذكور بتجريد زاويته من الزكاة التي كانت توجه لها وهي امتيازات كانت تتمتع بها هذه الزاوية الرحمانية منذ مدة.²

ويمكن الإشارة إلى أمثلة عديدة للثورات التي قادها أصحاب المصالح من زعماء وأمراء كثورة سالم التومي ضد عروج بعدما استنجد به، ودعاه لمساعدته، فكان أن تواطأ مع أعيان المدينة مع الحامية الإسبانية التي كانت متواجدة في حصن البينون،³ وكان رد فعل عروج حينها عنيفا حيث قتل سالم التومي، بالإضافة إلى ثورة سكان تلمسان على عروج بعد أن استغاثوا به كذلك وخيانتهم له وكانوا سببا في استشهاده سنة 1518، وثوراة أحمد بن القاضي على خير الدين بعد أن كان حليفا له استجابة لغواية الملك أبو الحسن الحفصي التونسي، وكانت النتيجة مقتل ابن القاضي كذلك.⁴

¹ محمد عيسى الجزائري: نبذة عن تاريخ الطرق الصوفية في الجزائر، الخميس 9 ذو القعدة 1432هـ، منتدى طريق الإصلاح، [/http://islahway.com/v2/index.php](http://islahway.com/v2/index.php)

² أنظر، مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعلبية، الجزائر، 1934، ص 18.

³ فراي ديغودو هايدو: تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة وتعليق د/ بوطبة لخضر، دار الباحث للنشر والتوزيع، برج بوعريش، الجزائر، 2022.

Marmol Carjaval Louis del : l'Afrique de Marmol , trad, par Nicolas Pérot et seieur d'Ablancourt, Paris, 1667, T2, LV.,Méditerranée, N°8, 1970.

⁴ حول ابن القاضي راجع:

Tahar Oussedik : le Royaume de Koukou, E.N.A.L, Alger, 1986.

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الفعال الذي لعبه العلماء ورجال الدين في إخماد هذه الثورات والعمل على استتباب الأمن وبسط النظام وفرض السلطة، حيث كان الحكام يلجأون إليهم كلما اتقدت نارا عجزوا عن إطفائها، أو لم يرغبوا في الإفراط في استعمال القوة العسكرية التي يمكن أن تأتي بالنتائج العكسية، حيث تستفز قبائل أخرى وتحملها على التمرد والعصيان والانضمام إلى الثوار كما حدث مع¹ ثورة ابن الصخري التي امتد لهيبتها على مناطق واسعة من التراب الوطني يذكر مؤرخ بايات قسنطينة أوجان فايستات Eugène Vayssettes أنها شملت الصحراء ووصلت إلى مشارف مدينة الجزائر، حيث انضم للثورة حلفاء قبيلة الحنانشة المعروفة بالقوة والبأس الشديد. وكانوا يستعملون كذلك الأموال والهدايا ويلجأون إلى مصاهرة شيوخ القبائل الكبيرة والعائلات ذات السلطة الدينية والعلمية كمصاهرة الحاج أحمد باي لقبائل البايك من أسرة المقراني والحنانشة وبن قانة وبوعكاز، وقد سبقه إلى ذلك البشوات والبايات ولعل أول من سن هذه السنة هو خير الدين بربروس عندما تزوج إحدى بنات أسرة بن القاضي. بهدف ضمان استقرار الحكم في منطقة زواوة. وأحيانا كان بعض الحكام الأتراك يتسببون في قيام الثورات الشعبية حيث كان حرصهم الشديد على المحافظة على الأمن والاستقرار لأن بقاء الباي أو الباشا في السلطة لمدة طويلة مرهونا بمدى تحكمه في البايك وتوفير الأمن المحافظة على ولاء السكان أو خضوعهم، فكانوا يحكمون بالإعدام على شخصيات فاعلة لمجرد أن تحوم حولهم الشكوك، كما حدث مع الباي مراد في بايك الشرق حينما قام بإعدام شيخ العرب محمد بن الصخري بن بوعكاز وثمانية من كبار القوم سنة 1637 فتسبب في قيام ثورة عجزت السلطة عن إخمادها لسنوات، وكان لهذه الثورة انعكاسات سلبية على الإيالة الجزائرية، والتي كان من أبرز انعكاساتها عدول يوسف باشا عن تنظيم حملة لتحرير وهران بعد أن استعد لها استعدادا جيدا،² وقد لعب العلماء والمرابطون دورا هاما في التوسط بين الثوار والسلطة والتوصل إلى إنهاء الخلاف، وكان من بينهم عالم بونة أحمد ساسي البوني صديق يوسف باشا الذي كاتبه شخصيا من أجل التدخل لإخماد نار الفتنة، ففعل بعد أن طلب منه العفو عن سكان بونة. وقد لعبت سياسة تقديم الأموال والهدايا دورا فعالا في إخماد الفتن والحروب، بالإضافة إلى سياسة فرق تسود، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثورة ابن الصخري لم تكن لها أهدافا سياسية وإنما كانت من أجل الثأر لمقتل شيخ العرب ورفاقه، وقد وقف يوسف باشا على هذه الحقيقة، وكان قائد الجيش العثماني قد وعد الثوار برأس مراد باي مقابل وقف القتال، وبعد ذلك فر مراد باي بعد هزيمة جيشه واختفت آثاره، حيث قيل أنه فر إلى تونس وقيل أنه انسحب إلى الصحراء ليختفي نهائيا من مسرح الأحداث. وقد سقنا مثال عن ثورة ابن الصخري لنبين الدور الذي كان يقوم به العلماء والمرابطون في عملية استتباب الأمن والاستقرار في الإيالة.

ويبدو أن بعض العلماء كانوا معارضين لسياسة البايك فيما يتعلق بالفساد واستفحال أمر الرشوة في الجهاز الإداري كما فعل العالم المتصوف المدعو يحي الأوراسي الذي حكم عليه بالإعدام ففر إلى منطقة

¹ Vayssette, Eugène: Histoire des Beys de Constantine sous la domination Turcs (1517-1837), Ed, Bouchène, 2002.

² حول هذه الثورة وانعكاساتها أنظر مقالنا ضمن أعمال الملتقى الوطني حول المقاومة عب العصور تنظيم المتحف الوطني بسطيف وجامع سطيف، جانفي 2012. " ثورة ابن الأحرش ضد الحكم العثماني نموذج لمقاومة الجزائريين لسياسة تسلط وتعسف سلطة البايك "

الأوراس وأعلن عن الثورة، ورغم تمكن السلطة من اغتياله فإن الثورة استمرت بقيادة أخيه أحمد. وفي نهاية العهد العثماني عرفت الإيالة الجزائرية ثورتان كبيرتان واحدة في الشرق الجزائري قادها المدعو الشريف ابن الأحرش الدرقاوي المدعو البودالي سنة 1803، والأخرى في بايلك الغرب بقيادة ابن الشريف الدرقاوي، لكن كلا الثورتين باءتا بالفشل لكنهما تركتا أثارا سلبية على جميع الأصعدة.¹

وكانت هذه الثورات وحركات العصيان والتمرد التي كان يقوم بها السكان من حين لآخر في الواقع امتحان عسير لفئة العلماء والفقهاء والمتصوفة وعلاقتهم بالسلطة التي كانت توضع على المحك، فقد كان العلماء بين المطرقة والسندان، فثورة الدرقاوي في الغرب كادت أن تؤدي بحياة عالمين هما أبو راس الناصري والزجاي، فكتب الأول حول هذه الثورة كتابا سماه " درء الشقاوة في فتنة درقاوة". وكان العالم أحمد بن هطال التلمساني -كاتب الباي محمد الكبير وصاحب تأليف رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي- أحد ضحايا ثورة الدرقاوة، كما أن العالم الكبير عبد الواحد الونشريسي ابن العالم الشهير أحمد الونشريسي ذهب ضحية موقفه السياسي حيث قتل على يد السلطان المغربي محمد المهدي لامتناعه عن خلع مبايعة أحمد الوطاسي ومبايعته.

وهناك بعض العلماء ممن تعرضوا للسجن والتغريم والضرب والمضايقات والنفي من أجل مواقفهم السياسية، كما حدث للعالم الكبير المهدي بن صالح الذي نفاه الباشا حسين خوجة الشريف خارج البلاد العربية ثم سرعان ما عاد إلى الوطن في عهد خلفه محمد بكداش الذي عزل الباشا السابق الذكر. كما صدر الحكم بالإعدام في حق العالم والمفتي الحنفي محمد بن مصطفى وصودرت ممتلكاته من دون أن نعرف الجريمة التي ارتكبتها، وحدث للقاضي المالكي محمد بن مالك الذي عُزل من منصبه ونفي إلى مدينة القليعة وليس له ذنب سوى أنه كان صهرا لعلي خوجة الذي ثار على مصطفى خوجة، ومن حسن حظّه أنه كان لديه معارف مع بعض أعضاء الديوان الذين تدخلوا لصالحه لدى الباشا وحجتهم أنه كان له طلاب وتلاميذ كثير، فتراجع الباشا عن قراره وعاد القاضي إلى منصبه السابق.²

وقد قص علينا شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون قصة تعرض جده لمحاولة سجن أثناء تواجده في قصر أحد البشوات في مدينة الجزائر رفقة العالم عبد اللطيف المسيح، فتمكنا من الفرار معا إلى جبال زاوارة لكن السلطة تمكنت من إلقاء القبض عليه وسجن لفترة ثم أطلق سراحه لما ثبتت براءته من التهمة المنسوبة إليه.³ ويبدو أن الثورات التي شهدتها الإيالة الجزائرية مع مطلع القرن التاسع عشر قد أثرت سلبا على علاقات العلماء والمتصوفة بالسلطة الحاكمة، حيث تخبرنا المصادر أن أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية اضطر إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى بسبب مضايقة الأتراك له، كما مُنع الشيخ محي الدين مقدم الطريقة

¹ لمزيد من التفاصيل حول هذين الثورتين أنظر، درء الشقاوة في فتنة درقاوة نقلا عن المقدمة التي وضعها المهدي البوعبدلي في الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لابن سحنون الراشدي، قسنطينة، 1973، ص 46.

أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، م. و. ك. الجزائر، 1983.

² أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص.

³ المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 166.

القادرية مع ابنه عبد القادر من السفر إلى الحج على يد حسن باي وهران (هو آخر بايات الغرب الجزائري).
والظاهر أن الحكام لم يكونوا يثقون في العلماء والمتصوفة.

وكان العلماء الذين تولوا الوظائف الحكومية والمناصب عادة ما كانوا يتنازلون عن مبادئهم وكرامتهم وأخلاقهم في سبيل نيل المنصب والمحافظة عليه، وكذلك في الحصول على المكانة والجاه والسلطة والنفوذ، وبعضهم نجح في توريثه إلى أبنائه بعده، مما أدى بالأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى القول أن الذي كان يحاول الجمع بين العلم والوظيفة خلال العهد العثماني مع المحافظة على الأخلاق كمن يحاول الجمع بين الماء والنار، أو كمن يسكن مع النمر لا يدري متى سيفترسه.¹

الإمام قاسم البوني مفتي الديار في بونة (بلد العناب) من مواليد 1010هـ - 1602م من أسرة ذات علم ودين، وهي أسرة أولاد النوري التي ستنجب في القرنين المواليين أبرز العلماء في المنطقة منهم الشيخ أحمد البوني، والمؤرخ محمد بن أحمد البوني، وسيدي قاسي النوري، وسيدي سالم النوري، وقد تبوأ أسرة أولاد النوري مكانة رفيعة في بونة طوال قرنين من الزمن حيث أسندت لها مهمة الإفتاء والقضاء في بونة واضطرت إلى الهجرة إلى بنزرت بتونس مع الضربات الأولى للقوات الفرنسية.

ولا نستغرب أقوال واعترافات الكتاب الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين بأن العلم والثقافة كانا منتشرين في هذه البلاد، فإذا عرفنا أنه في كل تجمع سكاني كانت تتوفر المدارس القرآنية وخزائن الكتب التي كانت الأسر والعائلات تحتفظ بها وتفتح أبوابها للقراء، مما لا شك فيه أن التعليم والثقافة في المدن كانت أوسع وأكثر نشاطا فهذا الشاعر أحمد البوني ترك لنا مئة كتاب في الفقه والحديث والعقيدة والأدب والتاريخ والتراجم وغيرها منها الدررة المكنونة في علماء بونة فتح الباري في شرح صحيح البخاري. وقد شهد الدبلوماسي والقنصل الفرنسي لوجي دوطاسي **Laugier de Tassy** الذي كان متواجدا في مدينة الجزائر في حوالي سنة 1724 بأنه كان يوجد في مدينة الجزائر ثلاث مساجد كبيرة، وخمسون مسجدا صغيرا، وثلاث كوليجات كبرى أو مدارس عمومية، وعدد لا يحصى من المدارس الخاصة لتعليم الأطفال.²

ومن العلماء الذين اشتهر بهم العهد العثماني عبد الرحمان الأخضرى (983هـ / 1575م)، وهو عالم متبحر في العلوم الإسلامية منقولها ومعقولها، ترك رصيда من الكتب في المنطق وعلوم الحكمة والتصوف والبيان والكلام والحساب والنحو، من أشهر أعماله، الجوهر المكنون، والمقدسية، والسلم المرونق في علم المنطق، وله كتب أخرى تزيد عن العشرين.

-أحمد المقرئ التلمساني (1041هـ / 1632)، كان عالما شديد الحفظ متضلع في العلوم النقلية والعقلية، من أبرز ما كتب نفع الطيب بغصن الأندلس الرطيب، وله نحو 28 مؤلفا في علوم شتى، نذكر منها أزهار الرياض في أخبار عياض، وحسن الثنى في العفو على من جنى وغيرها.

¹ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2.

² Laugier de Tassy: Histoire du Royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, Amsterdam, 1725, p164.

-عبد الكريم بن الفكون (1073هـ / 1663م)، من علماء قسنطينة جمع بين علم الظاهر والباطن، من أشهر مؤلفاته منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، وهو من أسرة ذات علم ودين تولت الإفتاء والقضاء شرفت برئاسة ركب الحجيج في قسنطينة.¹ مدحه تلميذه أبو مهدي عيسى الثعالبي:² وكتب عنه الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في رحلته ماء الموائد.

-أبو مهدي عيسى الثعالبي (1080هـ / 1669م) كان نموذجا جسد علاقة العلماء بالحكام، ومن الأمثلة الحية على سياسة تقرب الساسة والحكام من العلماء حيث كان هذا العالم صديقا ليوسف باشا (1640-1642)(1634-1637)، (1647-1651)، حيث استدعاه لحضرته وألحقه بخاصته، ورغم عزل هذا الباشا من منصبه إلا أن هذا العالم ظل صديقا له ورافقه في تنقلاته في الإيالة حتى حالت أحداث بينهما وتوفي الباشا بسبب وباء الطاعون مع كثير من أصدقاء الثعالبي. ومن مؤلفاته كتاب مقاليد الأسانيد، وكثر الرواة المجموع في دور المجاز ويواقيت المسموع.

- أحمد التلمساني 1018هـ / 1614م وابن مريم التلمساني 1020هـ / 1616م صاحب مؤلف "البستان في ذكر علماء وصلحاء تلمسان".³

-يحي الشاوي (1096هـ / 1685) الملياني، ومن مؤلفاته "أصول النحو"، "الدر النضيد في إعراب كلمة التوحيد"، "توكيد العقد فيم أخذه الله علينا من العهد"، و"إلحاق العي بفهم معاني الأي"، وغيرها.

-أحمد بن قاسم البوني (1139هـ / 1726) المعروف باسم الساسي البوني، له عدة تأليف في الفقه وأصول الدين والنحو واللغة وعلم الجدل والطب والتاريخ والأدب التعريف بما للفقيه من التأليف، تحفة الأديب بأشرف غريب، نظم كتب البخاري وإظهار بعض نفائس إدخاري المهيآت لختم البخاري وقواعد الإسلام وصغرى السنوسي واليقوتتان الكبرى والصغرى في أصول الدين وعلم الكلام، وشرح مختصر خليل و كثر النفوس الشيقات في نظم الورقات في الفقه وأصوله. وله كتب أخرى في الطب والتاريخ والسيرة.

ومن أشهر البشوات الذين كانوا محبين للعلم وأهله الداوي الحاج حسين ميزومورطو (1683-1686) وهو إيطالي ومعنى لقبه نصف حي لفقدانه يده اليسرى في إحدى المعارك مع المسيحيين.

الداوي الحاج أحمد (1695-1698) قام بتشييد جامع وقبة العالم سيدي عبد الرحمان الثعالبي وتوفي الداوي الحاج أحمد (1695-1698) بسبب الطاعون الذي اجتاح البلاد سنة 1698.

ويعد الداوي محمد بكداش (1707-1710) الذي مكث في مدينة بونة ولازم فيها العالم الساسي البوني وانتفع بعلمه، قبل توليه حكم الجزائر، يعد من الحكام الذين اشتهروا بحبهم للعلم والعلماء وتشجيعهم

¹ أنظر، أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون.

² عبد الحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص 149.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 409-410.

والإحسان إليهم، فقد مدحه العديد من العلماء والشعراء وعددوا خصاله وخاصة بعد تمكنه من فتح ثغر
وهران سنة 1708 ولناخذ أبياتا شعرية الشاعر والعالم أحمد البوني المعروف بالساسي حيث يقول:¹

بصهره محمد البكتاشي	من هو في الصلاح خير ناشي
بشره الرسول بالممة	حقنا على الإسلام كالكمأة
على لسان والدي في النوم	فاجعله ربي على رؤوس القوم
وبعد ذلك تولى السلطنة	وسار فيها سيرة مستحسنة
صار أمير حضرة الجزائر	كنز العلوم أنس كل زائر
فنصر الشرع وأجلى الظلما	وأذهب الجهل وأحيا العلما
وفرحت به قلوب المؤمنين	وقهرت به جيوش الكافرين
وفتحت على يديه وهران	فكمل المجد له والبرهان

كما مدحه الشاعر ابن ميمون الجزائري في كتابه التحفة المرضية

وكان قبل توليه السلطة قد تولى الخطابة بأحد مساجد مدينة الجزائر سنة 1692 كما شغل عدة
مناصب حكومية واشتهر بالعدل وحسن التدبير فمدحه الكثير من العلماء وأثنوا على حكمه وكان محبوبا
كذلك من طرف الرعية.²

-الطبيب والعالم عبد الرزاق ابن حمادوش، 1695-1785م، يعتبر من العلماء القلائل الذين اهتموا
بالطب وبالتداوي وبالصيدلة له مؤلف حول الطب عنوانه 'كشف الرموز في بيان الأعشاب'.وله "الجوهر
المكنون في بحر القانون" في الطب والتداوي والعلاج. وله "تعديل المزاج بقوانين العلاج". أحمد بن قاسم
المعروف بالساسي البوني من علماء بونة جمع بين الفقه والطب له مؤلف في الطب بعنوان: "إعلام أهل
القريحة في الأدوية الصحيحة".

-أبوراس الناصري من أبرز علماء الجزائر في الفترة العثمانية ألف ما يربو عن 140 مؤلفا في شتى أنواع
العلوم والمعارف منها كتاب في وراء الطاعون.³ وكان أبو راس الناصر غزير العلم كثير الحفظ حتى لقب
بالحافظ، رفيع المستوى في كتاباته محترما شيوخه وأقرانه من العلماء فقد كتب عن أحمد بن عمار لما التقى

¹ لمزيد من التفاصيل راجع، محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2، ش. و. ن. ت،
الجزائر، 1981، الكتاب يزخر بقصائد المدح لهذا الباشا بعد أن تمكن من فتح مدينة وهران، حيث انفجرت قريحة شعراء الجزائر بمناسبة هذا
الحدث العظيم.

محمد بن عبد الكريم: في التحفة المرضية المصدر السابق، ص ص 231-258.

² أنظر، محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، ش و ن ت،
الجزائر، 1981.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2.

به في مدينة الجزائر "ولإني أتمثل في حقه بما يقتضيه الأعرز مقامه، بإنشاء عجيب قيرير عطرير يستوقر الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير في الهواء ورزق بنيه في منقاره، وتذهل الممتازولة علا أوفاز."¹

لم تلبث الحالة الثقافية أن تراجعت في مطلع القرن التاسع عشر بفعل الاضطرابات التي عرفتها الإيالة وانعدام الأمن وانشغال الحكام عن شؤون الثقافة، فأصبح النشاط الثقافي يقوم على جهود العلماء الذين لم ينقطعوا عن التدريس ولم يتوقفوا عن التأليف، وكان في طليعتهم شيخ مؤرخي الجزائر أبو راس الناصري الذي يقدم لنا فيما كتبه حول سيرته في مؤلفه "فتح الإله" صورة معبرة عن الجو الثقافي الذي كان يسود الجزائر في هذه الفترة، والحياة الخاصة التي عرفها العلماء سواء في تلقيهم العلم أو في اتصالهم بعلماء المشرق. ويعتبر حمدان خوجة الجزائري من رواد المثقفين المخضرمين حيث عاش الفترة العثمانية وبداية الاحتلال، فقد كان من الكراغلة مما سمح له باحتلال مركز مرموق، كما كان من كبار التجار والأعيان في مدينة الجزائر، وقد ساعدته تجارته وثقافته الواسعة ونسبه بأن يكون من المقربين من السلطة الحاكمة، كما سمحت له أسفاره العديدة بحكم تجارته الواسعة بأن يكتسب ثقافة متنوعة وكان يتقن لغات عديدة منها الفرنسية والتركية والفارسية والعربية، فكان نموذجا للمثقف المتفتح المستنير. لعب دورا كبيرا في التعريف بالقضية الجزائرية وفضح سلوكات وأعمال الجيش الفرنسي بع احتلال الجزائر من خلال الكتابة إلى اللجنة الإفريقية وإلى الملك الفرنسي، ترك حمدان خوجة عدة مؤلفات أهمها كتاب "المرأة" و"إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز من الوباء"،² كما يعد أحمد بوضربة من العلماء والأعيان المثقفين الذين ساهموا كما فعل حمدان خوجة في الدفاع عن القضية الجزائرية، بالإضافة إلى ابن الشاهد صاحب "تقييدات بشوات الجزائر"، وابن المفتي وأحمد الشريف الزهار الذي كتب مذكرات أحمد الشريف الزهار³ والتي قام توفيق المدني بتحقيقها ونشرها وهي مادة مصدرية لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني لا يمكن لدارسي هذه الفترة الاستغناء عنه. لاحتوائه على أخبار ومعلومات نادرة عن الفترة الأخيرة من الحكم العثماني.⁴

ويبدو أن الحياة الثقافية في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر قد تأثرت بالأحداث السياسية وبالركود الاقتصادي الذي عرفته البلاد في هذه الآونة، وهذا ما نلمسه من كلام العالم الكبير والمؤرخ أبو راس الناصري الذي وصف لنا المشهد الثقافي في مخطوطه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" في أواخر القرن الثامن عشر في قوله: (وفي زمن عطلت فيه مشاهير العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده وخلت دياره ومواسمه... لاسيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان وأشرفت شمسها على الأفول..)، وقد كانت الحركة الثقافية في المغرب الأوسط نشطة حيث تحولت بعض المدن إلى قبلة للطلاب والمشايخ يأتونها من كل صوب وحذب مثل بجاية وتلمسان، و انتعشت الحياة الثقافية في بعض

¹ أبو راس الناصري: فتح الإله، ص 116، نقلا عن عبد القادر بكاري: رحلة الفتوحات الناصرية بمفتاح العلوم الحريية لمحمد أبي راس الناصري الجزائري، نشر ضمن كتاب جماعي "بحوث ودراسات مهداة للأستاذ عبد العزيز لعميد"، مطبعة نواصري، المسيلة، 2017، ص 351.

² حمدان خوجة: اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز من الوباء، تقديم وتعليق محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن،ت، الجزائر، 1968،

³ أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر. 1168-1246هـ، 1754-1830،

⁴ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص 159 وما يليها.

الأزمة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني في مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة، وكانت الزوايا منتشرة في جميع المناطق عامرة بالطلاب تقوم بمهمة نشر الثقافة والتعليم، إذ يعترف الكتاب الأوروبيين والفرنسيين أنفسهم بأن التعليم ومؤسساته كان منتشرًا، وكان يمول عن طريق أموال الأوقاف والحبوس، ومن المؤسسات التعليمية المسجد والجامع والكتاتيب والزوايا المنتشرة في المناطق الجبلية، وقد لعبت الزوايا والطرق الصوفية دورًا أساسيًا في المحافظة على الإسلام واللغة العربية وطعمت السكان ضد التغريب والتشويه وقد لمسنا هذا بقوة أثناء الفترة الاستعمارية أين اصطدم الاستعمار الفرنسي بحقيقة تحول الزوايا إلى مراكز للجهاد وقتال المحتل.

وكان العلماء والمشايخ كثيرون الهجرة بسبب الإهمال والتهميش الذي كانوا يلاقونه في الجزائر من عدم تشجيع بعض الحكام للعلم فكانوا يفضلون الهجرة مشرقًا ومغربًا بحثًا عن محيط ثقافي حر ومبدع.¹ وعلى الرغم من أن الدولة لم تكن مسئولة عن التعليم والثقافة إذ طغى الجانب العسكري على تكوينها واهتماماتها، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الحكام من الاهتمام بتشييد المساجد والجامع ومؤسسات الأوقاف، كجامع كتشاوة الجامع الأعظم وجامع بتشين وجامع سفير في مدينة الجزائر على سبيل المثال لا الحصر، كما أن السكان كانوا حريصين كل الحرص على تعليم أبنائهم إذ يخبرنا المؤرخ الإسباني ديغو دو هايدو والرحالة الإنجليزي طوماس شو والقنصل الأمريكي وليم شالر والرحالة الفرنسي دو بارادي وغيرهم على أن التعليم كان منتشرًا في الإيالة، واعترف أحد الكتاب الفرنسيين أن نسبة المتعلمين في الجزائر عشية الاحتلال كانت مرتفعة. ويؤخذ على الدولة العثمانية في الجزائر كما في الولايات العربية الأخرى التي كانت خاضعة لها عدم أخذها بأسباب التطور والتقدم الحضاري ولم تواكب التطور الذي كان يجري في أوروبا على سبيل المثال، رغم نداءات العديد من العلماء في العالم العربي والإسلامي، وربما أدى انصراف الحكام الأتراك إلى الجهاد والصراع مع الدول الأوروبية هو من شغلهم عن الاهتمام بالجانب الحضاري، وقد تفتن السلاطين العثمانيين الأواخر إلى الهوة الحضارية بين الدولة العثمانية المترامية الأطراف والتي كانت تتمتع بقدرات هائلة لتحقيق النهضة إلا أن ذلك جاء بعد فوات الأوان حيث أطلق السلاطين الأواخر مجموعة من الإصلاحات لكنها لم تنفذ فظلت الدولة تعاني الركود والجمود مما سهل على الدول الأوروبية - التي لا شك أنها بذلت قصارى جهدها لتبقي الدولة العثمانية تتخبط في الجهل والتخلف - القضاء عليها واقتسام تركتها.

7- السياسة الثقافية الاستعمارية:

يتضح من النظرة الإجمالية إلى واقع الثقافة في الجزائر أثناء العهد العثماني أن في مجملها كانت من حيث مؤسسات التعليم وبرامج الدراسة ونوعية الإنتاج في مختلف العلوم والفنون تماثل ما كانت عليه الأقطار العربية الأخرى في تلك الفترة، وإن سمحت الظروف لبعض الجهات وبخاصة في المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة وتلمسان ومعسكر ومازونة، أن تتميز بنشاطها العلمي وإنتاجها المعرفي الذي ساهم به أدباء والفقهاء وشيوخ الزوايا، على الرغم من أنه كانت تغلب عليه الصبغة الدينية والمواضيع الأدبية اللغوية والتاريخية

¹ حول الموضوع أنظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2.

والفتاوى والنوازل كما رأينا من قبل، وهذا ما أبقى البنية الثقافية محافظة على طابعها التقليدي، وسمح لها بتقديم الخدمات الضرورية في مجال العبادة والتعليم والقضاء قبل أن تتعرض هذه البنية الثقافية للتدمير بفعل السياسة الاستعمارية الرامية إلى تحطيم المقومات العربية الإسلامية للجزائريين.¹

وقد أحصيت المدارس في الجزائر سنة (1830م)، بأكثر من ألفي مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعالية. وكتب الرحالة الألماني «فيلهم شيمبرا» حين زار الجزائر في شهر ديسمبر (1831م)، يقول: «لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهد القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه، في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب»... وخير المثال ما شهد به الأعداء.² وقد عمل الاستعمار الفرنسي بعد أن تمكن من الاستيلاء على مدينة الجزائر على تجريد الجزائريين من مقوماتهم الشخصية، وذلك من خلال القضاء على مؤسساتهم الدينية والتعليمية، حيث أصدرت الإدارة الاستعمارية مجموعة من القوانين والأوامر حتى يتسنى لها القيام بعملها بصفة شرعية، ومن هذه القرارات ذلك القرار الذي أصدره الجنرال كلوزيل في 8 سبتمبر 1830 الذي يقضي بمصادرة أوقاف مكة والمدينة، والذي اضطر إلى إلغائه أمام احتجاج سكان مدينة الجزائر الذين أخبروه في شكواهم أن هذه الأموال ليست ملكاً للأتراك، غير أنه أصدر قراراً آخر بتاريخ 7 ديسمبر من نفس العام ينص على مصادرة كل أموال الأوقاف، الأمر الذي أدى إلى حرمان المؤسسات التعليمية والدينية من مصدر مالي أساسي، وهو ما نتج عنه تراجع دورها وتقهر مكانتها بشكل رهيب.³

وتعد الجزائر البلد العربي والإسلامي الوحيد الذي مارس فيه الاستعمار الحديث تجارب إذابة ودمج شعبيها في الأنا الأوروبي، ولهذا لم يعتمد الغزو الفرنسي للجزائر على قوة الجيش والسيوف فقط، بل تعداهما إلى رجال الدين، حيث كان قادة الجيش متفقين على اختلاف مشاربهم أنه بعد الاحتلال سيتم إرجاع الجزائر إلى حظيرة المسيحية، ويجمعون على كون ذلك رسالة حضارية ألقيت على عاتقهم، ورغم الاختلاف السياسي بينهم إلا أن علاقاتهم في إطار هذا العمل كانت وطيدة ومتكاملة، لاسيما بين العسكريين ورجال الدين، وأصدق دليل على هذا وجود 16 راهب مع الحملة العسكرية الفرنسية، ومناضلون كاثوليك منخرطين في حملة مسيحية مقدسة.

كما كانوا يجمعون على أن الإسلام يشكل خطراً عليهم، فتقاطعت أفكارهم حوله لأنه لا وجود لهم في الجزائر إلا إذا تمت محاربتة والقضاء عليه، فهو بمثابة المحرك الذي يدفع الأهالي إلى حمل السلاح ضدهم، ومن أجل تحقيق ذلك عملت السلطات الفرنسية على تحطيم مقومات الشخصية الجزائرية وعلى رأسها الدين كمقوم حي للذات الجزائرية، فقد أدركت أن تهديمه وتمييعه يمكنها من فرض نفوذها وبسط سيطرتها،

¹ شاوش حباسي: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998.

² شمير: مذكرات، تعريب أبو العيد دودو، في الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص 13.

³ حول وضعية التعليم عشية الاحتلال الفرنسي راجع، أدري برنيان، إيف لاکوست، اندري نوشي: الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اصطمبولي رابع، ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 211 وما يليها.

حول السياسة الدينية الاستعمارية راجع، شارل روبير أجرون: المرجع السابق، ص 267-313.

فاستخدمت في سبيل ذلك طرقا وأساليب شتى، واتبعت سياسة متدرجة في محاربة الإسلام بدء باختراق معاهدة الاستسلام الموقعة بين الطرفين الجزائري والفرنسي.¹

وفي ذلك الإطار تعرضت المساجد والجوامع والزوايا إلى التهديم وتم تحويلها إلى كنائس ومتاحف ومرابط للخيول وثكنات عسكرية للجنود، ومستودعات للجيش، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر جامع كتشاوة الذي حول إلى كنيسة وفيه وجه قائد الحملة خطابا إلى القسيسين جاء فيه: "إنكم جئتم لتفتحووا من جديد أبواب المسيحية في إفريقيا"، ولم يكتف الاستعمار الفرنسي بهذا بل راح يعمل على تغيير عقيدة الجزائريين بتنصيرهم، فقد أعقبت فترة القضاء على المقاومة الأولى انتشارا واسعا للحركة الإرساليات التبشيرية التي وجدت الأبواب مفتوحة على مصراعها، والتشجيع الذي وجده الآباء والأخوات البيض، وجاء على لسان أحدهم: "إن الإنسان يكون أعشى إذا لم يدرك أن العناية الإلهية تعمل للقضاء على الإسلام، ووقتها تصبح الجزائر مملكة مسيحية، ولن تكون مسلمة".²

وتماشت عملية التنصير مع الاستعمار جنبا إلى جنب، وتضاعف دور رجال الدين الذين وجدوا في الكوارث الطبيعية والأمراض الذي عرفها المجتمع الجزائري ميدانا خصبا لتبليغ رسالاتهم، نذكر المجاعات التي قضت على نسبة كبيرة من الجزائريين في الستينيات من القرن 19، فاستغل الآباء والأخوات البيض الوضع المأساوي لنشر الديانة النصرانية في وسط المجتمع فكاوا يجوبون القرى والأرياف التي امتدت إليها الكوارث السالفة الذكر ويقدمون المساعدات للأهالي مقابل أن يطلبوا منهم التخلي عن دينهم والتنصر،³ حتى يكونوا في منأى عن هذه الكوارث، وكانوا يقدمون للأطفال خاصة الخبز الممزوج بالتنصير أي الخبز في اليد اليمنى والصليب في اليد اليسرى، ويُذكر أن الكاردينال الشهير لافيغري كان يطوف المناطق التي فتكت بها المجاعة حاملا الصليب في يمينه والخبز والدواء في يسراه، في سياسة دنيئة لا تمت للإنسانية والمبادئ المسيحية بصلة، وقد تعزز نشاطه أكثر بوصول المدنيين للحكم سنة 1870 حيث باركوه في عمله الديني، وهنا نلاحظ التجانس في العمل بين السياسيين ورجال الدين، ويُذكر أن الحاكم العام دوقيدون de Guidon وجه أمرا إلى الكاردينال لافيغري السابق الذكر كشف له من خلاله عن دعمه المطلق لجهوده وللسياسة المتبعة بقوله: "لقد قضيت طوال حياتي وأنا أحيي البعثات التبشيرية في كل البحار، ولا يمكن أن أقبل اليوم أن تضطهد على أرض مسيحية"، فوجد بذلك لافيغري دعما قويا وسندا له في سعيه لتحقيق أمانيه في بعث الكنيسة الإفريقية، فقام بإنشاء مراكز لرعاية الأيتام في ظل الكنيسة.⁴

وقد ظلت شؤون الدين الإسلامي في يد الفرنسيين، فالحاكم العام كان يتحكم في أمر الشرع، وكان يتكفل شخصيا بتعيين الأئمة في المساجد والقضاة ويعزلهم، فقد عكف على تعيين من كان أخلص للإدارة

¹ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص 159 وما يليها.

² شاوش حياشي: المرجع السابق،

³ تفاصيل أكثر حول التنصير والروح الصليبية للاستعمار الفرنسي أنظر، شاوش حياشي: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998.

⁴ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث.

الاستعمارية، ويعين ذوي المستوى العلمي والديني الضعيف ويتساهلون في تعيينهم، ويذكر أوغستين برك Augustin Berque أنهم كانوا يعينون موظفين في المساجد كان يسيطر عليهم الجهل المركب، فهدفت إدارة الاحتلال إلى تكوين دين يُعرف بالإسلام الجزائري، يكون مقطوع الصلة بالإسلام الحقيقي، ومعزول عن بقية المسلمين، وذلك سعياً منها لعزل الجزائر عن المشرق والمغرب العربيين، وإضفاء الطابع المحلي عليه، فأظهرت الخلاف بين المذاهب الفقهية مثل أن المذهب المالكي مخالفاً لما ورد في المذهب الحنفي الذي كانت الخلافة الإسلامية تعمل على نشره، وبذلك تضمن استقلال الجزائر الروحي عن المشرق العربي الذي بدأ يشهد نهضة على الجمود والبدع ومظاهر الشرك.¹

كما عملت إدارة الاحتلال على التضييق على الجزائريين فرص الاحتكاك ببقية المسلمين، ووصل بها الحد في فترات معينة إلى منع الحج عنهم لأنه يمكن أن ينتج عنه من تنامي الوعي السياسي والحضاري للجزائريين وهو أمر لا يخدم أهداف الاحتلال. وتحكمت إدارة الاحتلال في الحج وأجرت عليه ألعيبها حتى تفرغه من محتواه الروحي ومن حقيقته الدينية، منع على الأهالي أشياء ويحجب إليهم أشياء أخرى، فقد ظهرت إدارة الاحتلال اهتمامها ورعايتها بالزوايا والطرق الصوفية، وسعت إلى تقريبها على أنها المعبر الحقيقي عن الدين الإسلامي، فكانت طائفة ممن تسميهم رجال الدين تنشئهم على شروط الوظيفة، وتروضهم على الأساليب الحكومية حتى ينسوا أنفسهم وعلاقتهم بالدين وصلتهم بالأمة وتمتعهم في مهن أخرى غير الدينية، حتى يصبحوا يودون عملاً لحكومة ورجالها لا لله ولدينه.²

وفي هذا السياق استمال الفرنسيون عدة طرق صوفية ونجحوا في التأثير على الطريقة التيجانية مثلاً، وفرع منطقة الزيبان للرحمانية والدرقاوية، وبثت فيهم فكرة أن الاستعمار أمر محتوم وهو قضاء وقدر، واستخدمتهم لتخدير الشعب، ودفعه إلى الاستسلام وقدمت لهم التسهيلات، وهذه الطرق عملت على إفساد العقائد ونشر الخرافات والبدع المخالفة للدين الإسلامي، وأثرت على التماسك الاجتماعي، ونتيجة ذلك تشوهت بعض تعاليم الدين وضعف الوازع الديني لدى الناس، رغم إدراكها ما وصلت إليه من نتائج مضرّة بالإسلام من حيث احتكار معابده وابتلاع أوقافه، وترويض بعض رجاله، إلا أن حكومة الاستعمار ظلت متمسكة به فهي التي كانت تقرر شؤونه وتسير مؤسساته فرغم تطبيقها مبدأ فصل الدين عن الدولة في باريس، فإن هذا الإجراء استثنى الإسلام الذي ظل مرتبطاً بالدولة، رغم إصرار الجزائريين تطبيق هذا المرسوم على الدين الإسلامي مساواة مع الديانتين المسيحية واليهودية.³

حول أحداث هذه الفترة والسياسة الاستعمارية اتجاه الجزائريين راجع، أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1.

وكذلك محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال، م. و. ن. ت، ط3، الجزائر، 1982.¹

² شاوش حباسي: المرجع السابق.

³ كانت مطالب الجزائريين تتمثل في فصل الدين الإسلامي عن الدولة حتى لا تتدخل السلطة في شؤون الدين وبالتالي تقوم بتوظيفه لخدمة أهدافها واغراضها وعلى رأس الجمعيات التي كانت تطالب بفصل الدين عن الدولة كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

أدرك الاستعمار أهمية اللغة كمكون ثقافي فبي الوعاء الذي يحفظها جيلا بعد جيل، فلغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والثقافة، لذا عمل على قطع الصلات الحضارية التي تربط الجزائريين بلغتهم، كونها الاسمنت الذي يضمن تماسك الوحدة والعروة الوثقى التي تربط بين الأجيال، فقد توصل المستعمر إلى أن العربية لغة مقدسة عند الأهالي، لاسيما أنها لغة القرآن والإسلام واستنتج مدى تعاضدها مع البربرية وتفاعلها معها، فأعلن هذا المستعمر أنها لغة ميتة وأجنبية في الجزائر، ولم يمنعهم من تعليمها ونشرها بين موظفيهم من جنود وإداريين لغرض سياسي تمثل في تمكينهم من التوغل في عمق الثقافة والحضارة والتاريخ، فأقبلوا على دراسة المخطوطات التي وجدوها مكتنزة في الزوايا والمساجد، فترجموها ونشروا نصوصها، وعلى الرغم من نوايا الإدارة الفرنسية غير النبيلة فإنها تكون قد خدمت الثقافة والتاريخ الجزائري من حيث لا تدري، حيث أقبل المستشرقون على دراسة المجتمع وحضارته وعاداته وتقاليده، وأحدثوا تنظيمات وجمعيات ثقافية ساهمت في التعريف بماضي الجزائر نذكر منها إطلاق مشروع اكتشاف الجزائر سنة 1837 الذي أثمر في تأليف كما هائلا من الكتابات في التاريخ والآثار والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها بحيث أصبحت هذه الكتابات رغم احتوائها على بعض الأفكار التي كان الغرض منها خدمة الاستعمار والترويج له والدفاع عنهن إلا أنها تعد مصدرا مهما للباحثين والدارسين لتاريخ الجزائر عبر العصور، كما أسسوا المجلة الإفريقية القيمة من حيث موضوعاتها وكتابتها وتنوع دراساتها حيث استمرت في الصدور من 1856 إلى غاية الاستقلال، وهي مجلة متميزة تحتل الصدارة في معالجاتها للتاريخ خاصة. كما أسسوا الجمعيات التاريخية والأثرية في كل من الجزائر ووهران وقسنطينة، ولا يمكن للمرء ان يتجاهل الدور الذي لعبته الطباعة والصحافة في هذه المرحلة المتقدمة من الاحتلال، حيث كان لها دورا أساسيا في يقظة الأمة، وإنه يمكن القول أن الحركة الإصلاحية والنهضوية التي ظهرت في الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي مدينة لهذين العنصرين: الطباعة والصحافة.¹

و اتبعت إدارة الاحتلال عملية مزدوجة، فمن جهة تقوم بنبذ كل ما هو أصيل في اللغة العربية و من جهة أخرى تعوض الفراغ الذي تركه بفرض اللغة الفرنسية في آن واحد، وسارت العملية بخطوات حثيثة في الإدارة والتعليم، وبدأت بغلق المدارس والمعاهد وتشريد المعلمين والطلبة، فاخفاء المؤسسات التعليمية كان يعني بالضرورة اضطهاد اللغة العربية، فاللغة كما يؤكد المختصون في الدراسات اللغوية أنها كائن يقوي و يضعف فهي دائما مرتبطة بالوسط الاجتماعي، تزدهر بخصوبة و ثراء ثقافته و تخبو بتراجع الحضاري و جموده الثقافي، فاللغة تسير مع الاستقلال جنبا إلى جنب، فالأمة التي تفقد حريتها تضعف لغتها بصورة آلية.² و لتجسيد فكرتهم هذه حاربوا اللغة العربية كما كانت محاربتهم للأهالي بإصدار المراسيم تارة و بالقوة تارة أخرى، فأضحت لا تظهر في أي ميدان سوى في المساجد والزوايا، فهي محظورة في الإدارة، فالوثائق و

¹ سفيان لوصيف: مدخل إلى تاريخ الجزائر الثقافي، محاضرات أقيمت على طلبة السنة الثانية ل.م. د، قسم التاريخ والثار، جامعة سطيف 2011-2012.

² للمزيد من المعلومات راجع، عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999.

المستندات كانت تكتب باللغة الفرنسية، فحسب إحدى التعليمات الصادرة من الحاكم العام جاء فيها أن الجزائر لن تصبح حقا مملكة فرنسية إلا عندما تصبح اللغة الفرنسية هناك قوية، والعمل الذي يترتب إنجازه هو السعي وراء نشرها بين الأهالي إلى أن تقوم مقام اللغة العربية، واعتبرت السلطات الاستعمارية عملية الفرنسية وسيلة هامة للوصول إلى سلم كامل في الجزائر، بعد فرنسا الإدارة غيرت أسماء المدن و القرى من العربية إلى الفرنسية، وأطلقت على الشوارع تسميات فرنسية من أسماء زعماء و عسكريين و رجال دين و قديسين على غرار شوفالبيه و سانت أوجان و أودان و لافيغري و روفيقو و سانت أرنو و فليب فيل و بيرغوفيل و بون و بوجي وغيرها من أسماء المدن، حيث أصبح المتجول في أحياء مدينة الجزائر أو غيرها من المدن يتصور أنه في مدينة فرنسية، لأن أسماء الشوارع فرنسية ففي مدينة سطيف مثلا نجد شارع ديزلي و بومرشي و رويسودور و لانغار و شومينو و برغاي وغيرها من الشوارع، وامتدت العملية إلى أسماء و ألقاب الجزائريين بعد وضع السجل المدني، حيث ألصقت إدارة الاحتلال بالعائلات الجزائرية ألقابا مشينة مسيئة إليه بغرض الإذلال و الإهانة و إفساد الأنساب.

هذه الإجراءات كلها تصب في منحى واحد هو تقبل الهيمنة الأجنبية و الاحتواء الحضاري، فهي أساليب تفقد الهوية التي عمادها اللغة، و تدمج الشعب الجزائري في جنس الأمة الفرنسية، وهذه الغاية المرسومة لا تكتف بالجوانب الشكلية و المظاهر الخارجية، فاللغة من سماتها أنها غير ملموسة و فرنسية المحيط لا تحقق الهدف إلا إذا وصلت الفرنسية إلى ذاتية و روح الجزائري.

أدرك الاستعمار منذ أيامه الأولى الخصوصية اللغوية للمجتمع وهي التوأمة بين العربية و الأمازيغية فراح مُنظِّره يصنعون سياسة التفرقة و العنصرية و وفقا لسياسة فرق تسد، فاجتهدوا في خلق نزعة بربرية معادية لعروية الجزائر، و استغلوا هذه الخصوصية و حاولوا التنظير لها، منطلقين من فكرة مُسلمة عندهم هي أن تعريب البربر كان جزئيا فقط، وهم أكثر قابلية للاندماج و التكيف مع اللغة الفرنسية و ثقافتها.¹

والتزم الفرنسيون ميدانيا بتجسيد هذه الأفكار للحفاظ على التمايز بين المناطق السهلية العربية و الجبال البربرية يقول ورنبي بهذا الصدد: "بدل أن يُطلب من المعمرين احترام القومية العربية وهو احترام يتنافى مع الحضارة، طالب بالحقوق المشروعة للقومية البربرية لكان المعمرون قد صفقوا لذلك"، وهو من دعاء فكر الإدماج التي من أهدافها فرنسا الجزائر و خصوصا منطقة القبائل، فوظفت مشاريع مختلفة كتنقية اللغة البربرية و اعتبارها بديلا عن اللغة العربية الفصحى، و الاعتناء بها، و كانت نيتهم طردها من الجزائر عن طريق تدريس البربرية، و إنشاء إذاعة ناطقة بها، و مرور الوقت تكونت نخبة مثقفة تعلمت على أيدي الآباء البيض، استعملت كأداة لتنفيذ خطة فرنسا الثقافية، غرست فيها فكرة كره كل عربي و تعلمت هذه النخبة أن العربية لغة غازية و العرب غزاة.²

¹ لمزيد من التفاصيل حول الاحتلال الفرنسي للجزائر و ما انجر عنه من آثار و انعكاسات على السكان راجع، أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال، م. و. ن. ت، ط3، الجزائر، 1982.

² أنظر، إيفون توران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.

تضمن الفرنسية الهيمنة داخليا على مختلف المستويات المحلية، فهي وسيلة الغزو الفكري وضبط التوجه الإيديولوجي، فقد اعتبرها قادة الاحتلال المرحلة الثالثة والأخيرة بعد مرحلتى السيف والمحراث لترسيخ الاحتلال، فهي سلاح فعال في غزو الأفكار وإزالة الحاجز القائم بين المستعمر والجزائريين، كانت المدرسة أحسن ميدانا لغرسها في الأذهان وتثبيتها في العقول. فقد جاء على لسان أحد المسؤولين قوله: "مدرستنا الجزائرية لا تعني شيئا إذا لم تنشر في عقول الشباب أفكارنا، وتكون الفرنسية ترجمان ذلك"، فاحتلت اللغة الفرنسية الصدارة بين لغات التعليم في معظم مواده، فالتعليم أيام الاحتلال استعماريا لا يعترف باللغة العربية ولا يقيم لوجودها أي حساب، فالفرنسية هي وحدها لغة التدريس. ولما كانت المهمة صعبة فقد كانت سلطات الاحتلال تختار المعلمين والمعلمات للقيام بالعملية التعليمية للأطفال الجزائريين بعناية كبيرة حتى تكون النتائج مضمونة، وكان الآباء والأخوات البيض يقدمون نموذجا في التفاني في العمل وحبه والسلوك القويم حتى يؤثروا على نفسية الأطفال.

كما نظمت فرنسا أمور التعليم في الجزائر فجعلته خالصا في اللغة والمناهج والتسيير العام فقد صرح وليام مرسويه "Wiliam Mercier" بقوله: "أنه لما أخضعناهم أقمنا نظاما تعليميا للأطفال الجزائريين، فإننا لم نقرأ حسابا البتة للغة العربية في المدارس الابتدائية الخاصة بالأهالي" وقد يترتب عن هذا نتائج سلبية تضر بالطفل المتمدرس، خاصة إذا علمنا أن اللغة التي كان يدرسها تترسخ في ذهنه وبها ينمو تفكيره، أما التعليم الثانوي فكانت العربية مدرجة في مرتبة اللغات الأجنبية، أو أدناها من حيث الحجم الساعي الذي لم يكن يزيد عن الثلاث ساعات في الأسبوع، وكان يتولى تدريسها أساتذة أوروبيون يجهلون أسرارها وتنقصهم الكفاءة، أما اللهجة العامية فكانت تُعلم بأسلوب شفهي ليس له أي اتصال بالكتابة.¹

قد نتساءل كيف لمعلم فرنسي أن يعلم اللغة العربية أو اللهجة العامية؟ وبما يُفسر ذلك؟ لعل الأمر لا يحتاج إلى نقاش موسع فهي رغبة في وأد اللغة العربية، حيث كانت إدارة الاحتلال تسند مهمة تأليف الكتب المدرسية إلى أساتذة لا دراية لهم بالعربية من صرفها ونحوها وقواعدها، وفي جامعة الجزائر وهي الجامعة الوحيدة لم يكن للعربية أي أثر يُذكر، عدا في قسم الدراسات العربية والإسلامية التابع لطلية الآداب الذي كان يختص في الدراسات الاستشراقية وتراث وتاريخ الجزائر. ولعل المدرسة الوحيدة التي كانت تُعامل فيها العربية معاملة تليق بمكانتها هي المدارس الإسلامية الفرنسية وباستثناءها فإن السياسة التعليمية كانت تتماشى نحو إضفاء طابع الفرنسية.²

لم تكن هذه السياسة تقتصر على التعليم الرسمي بل سلكت طريقا مشابها له في التعليم العربي الحر³، لما بدأت تظهر عليه بوادر الانتعاش يقول البشير الإبراهيمي بهذا الصدد: "لما جد جد الأمة في هذه السنين

¹ لمزيد من التفاصيل حول السياسة التعليمية الاستعمارية راجع، آسيا بلحوسين رحوي: و"ضعية التعليم في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي"، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، عدد ديسمبر 2011،

² محاضرة الدكتور سفيان لوصيف، أُلقيت على طلبة السنة الثانية ل. م. د، موسم 2012-2013.

³ حول وضعية التعليم العربي والتضييق على المعلمين راجع، محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص ص

وفتحت أعينها على تراث منسوب، وحق مغصوب، ومدت أيديها للاسترجاع والتجديد مدت الحكومة يدها إلى تلك القوانين تحركها وتوقظها وتغطيها بالزيادات والمناقصات"، فصدر في سنة 1904 قانون يمنع فتح مدرسة لتعليم العربية إلا إذا حصل صاحبها على رخصة مسبقا، وإن حدث أن تم منحها له يُحظر عليه تدريس الأدب العربي وفنونه، واستمرت حكومة الاحتلال في ابتكار أشكال محاربة اللغة العربية وصلت إلى حد اعتبارها أجنبية وهي في عقردارها على إثر إصدار قانون 8 مارس 1938 الذي شدد في منح رخص تعليمها بشروط تكاد تكون تعجيزية لأن فتح مدرسة لتعليم اللغة العربية كان ولا يزال في نظر الفرنسيين أخطر من مصنع لإنتاج الأسلحة والذخيرة استعدادا للثورة.¹

أما المدارس الحرة التي سُمح لها بتعليم اللغة العربية² فقد أُجبرت في غضون الحرب العالمية الثانية على تدريس الفرنسية بحجم ساعي يقدر بخمسة عشر ساعة في الأسبوع، ولنا أن نتصور الحجم الساعي الضخم كونه لم يأخذ بعين الاعتبار المواد الأخرى المدرسة على كثرتها. فلولا تنديد رجال جمعية العلماء المسلمين ورفضهم المطلق للإجراء لحلت اللغة الفرنسية محل العربية بها. ومع تطور الحركة الوطنية عقب الحرب العالمية الثانية تدعمت اللغة العربية بالقانون الأساسي الصادر في 20 سبتمبر 1947 الذي اعتبر اللغة العربية من لغات الاتحاد الفرنسي، تخضع لنفس المعاملة التي تخضع لها اللغة الفرنسية، وتدرس في جميع مراحل التعليم، غير أن هذا القانون لم يطبق على أرض الواقع وظل مجرد حبر على ورق، ولم يدخل حيز التنفيذ لأن المعمرين حاربوه بشدة وقاموا بتنظيم حملات بهدف عدم تنفيذه، فجمد القانون وهو ما أدى إلى استمرار سيطرة اللغة الفرنسية كلغة الإدارة واستمر العمل بقانون سنة 1938 الذي جعل العربية لغة أجنبية.

وقد وصل عدد معلمي اللغة الفرنسية موسم 1950-1951 إلى عشرة آلاف معلم، في حين لم يتجاوز معلمي اللغة العربية 111 معلما في نفس الموسم لنصل إلى أن جهود الفرنسيين قد حققت نتائج معتبرة في محاولة فرنسا الجزائر، وإضعاف مستوى اللغة العربية التي تأثرت كثيرا، وقد ترتب عن هذا تكوين فئة من الجزائريين يحسنون اللغة الفرنسية وهم القلة الذين سمح لهم دخول المدارس الفرنسية، برزت خاصة من الثلاثينيات من القرن العشرين عرفت باسم النخبة المفرنسة المنهجرة بالحضارة أو المدنية الأوروبية والمتحمسة لفكرة إدماج الجزائر في فرنسا، وترى أن الحل لإصلاح أوضاع الأهالي هو الارتقاء بهم إلى صف المواطنة الفرنسية، وظلت بعيدة كل البعد عن الجماهير الشعبية وطموحاتها.³ أدركت إدارة الاحتلال مدى أهمية التعليم ودوره في حياة المجتمع الجزائري ثقافيا واجتماعيا، فربطته بالسياسة ولم تفصل بينهما، وعملت على إيجاد نمط تعليمي معين خاص بالجزائريين، فحسب منطري الاستعمار أن تعليم الأهالي يدخل في إطار الرسالة الحضارية التي كانت تعكف فرنسا على نشرها، ولكن قبل ذلك البدء في محاربة الثقافة الوطنية كمرحلة أولى

¹ سفيان لوصيف المرجع السابق.

² لمزيد من التفاصيل حول التعليم العربي الحر أنظر، فضلاء، محمد الحسن، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ج1، 1999.

³ سفيان لوصيف: المرجع السابق.

ونشر التعليم الفرنسي بعدها كخطوة لتحقيق ذلك. وشرع في مراقبة مؤسسات التعليم من مدارس ومساجد وزوايا، ومحاولة توجيهها لخدمة أغراض المستعمر.¹

ونتيجة لذلك ألحقت أضرارا بليغة بالتعليم، ووقع اضطراب في صفوف الأدباء والمفكرين والفقهاء الذين تخلوا عن وظائفهم وتشتت شمل التلاميذ، وأغلقت الكثير من المدارس والمعاهد وأهمل التعليم العربي الإسلامي، وبدأت تتفك عرى الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر وقد اعترف تانكفيل في ذلك في قوله: "خرينا المدارس وشنتنا شمل الزوايا، لقد انطفت في الجزائر مشاعل العلم وأهملنا العلماء والفقهاء المسلمين، فصاروا قوما بورا". وهدمت بعض المدارس وحولت لأغراض متعددة، وأهملت المدارس الدينية في ظرف وجيز تميز بتناقض بين عدد الطلبة والرجال الأكفاء الذين كانوا يتولون شؤون التعليم. ومن ناحية أخرى شرعت الحكومة العامة في تعليم بعض الجزائريين، فهدفت إلى تخريج الإطارات الإدارية والموظفين الذين تحتاجهم في تعاملها مع السكان، والقيام بشؤون المستعمرة، وقد تم حصره في فئة قليلة من الشعب. لقد أثير الجدل في فترة وصول المدنيين إلى الحكم في فترة السبعينيات من القرن 19، وطفا الموضوع في ساحة الأحداث بشكل لم تعرفه الجزائر من قبل، خاصة في غضون المناقشات البرلمانية التي مكنت جول فيري من إرسال لجنة من المفتشين وخبراء هم أعضاء في مجلس الشيوخ إلى الجزائر، وهذه الزيارة أثمرت بإصدار مرسوم 13 فيفري 1883 الذي نص على إلزامية التعليم ومجانيته للأهالي والأوروبيين على سد سواء، وقد أيد الجمهوريين هذا الإجراء الذي هو أحسن وسيلة للوصول إلى الإدماج، عن طريق توحيد البرامج المدرسية.²

لم تفرض الإلزامية على الأهالي، فلا المجالس العامة ولا البلديات قامت بمجهود لنشر التعليم بشكل رسمي، وظل تسييره بيد الحاكم العام ومن اختصاصه وتمتعه بصلاحيات وسلطات واسعة في هذا المجال، ومنه تتجلى سياسة التجهيل التي اتبعتها السلطات الاستعمارية في حق الجزائريين، فليس ثمة مشروع مدرسي متلاحم خاص بهم، ولذلك فقد تعددت العوامل التي أوصلت التعليم إلى هذا الانحطاط، فمنهم من ينسب ذلك الجهل الذي خيم على الجزائريين إلى عزوفهم عن التعليم ورفض الأولياء إرسال أبنائهم إلى المدارس خوفا على دينهم وتعصبا منهم ضد الفرنسيين، وكذلك التحفظ الذي أبداه الجزائريون كان نابعا من معطيات اجتماعية وتاريخية حول التعليم الذي أراد الاستعمار بثه، لأن ما طلبوه هو تعليم يتماشى مع لغتهم وتقاليدهم ويحفظ شخصيتهم في حين أن ما كان في المدارس الفرنسية لم يكن وطنيا ولا قوميا ولا دينيا ولا إسلاميا.

هناك من يرجع ذلك إلى تقصير من الحكومة الفرنسية في الجزائر لكونها تعمدت إهمال تعليم الجزائريين، وذهب اتجاه آخري برر عدم تعليم الجزائريين إلى كونهم من جنس دنيء ومنحط لا يتطور علميا ومعرفيا مهما بلغت جهود فرنسا، ويستند آخرون إلى تدهور المستوى الاقتصادي والاجتماعي للأهالي كون معظم العائلات عاجزة عن توفير المصاريف الأزمة لتعليم أبنائهم، وأن فرنسا لم تجهد نفسها في توفير الأموال

¹ شاوش حباسي: المرجع السابق ص78.

² تفاصيل أكثر حول الموضوع راجع دراسة، سميرة نقادي " واقع تعليم الجزائريين في ظل التشريعات الفرنسية 1919-1945"، مجلة إنسانيات،

المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، 2011. <https://insaniyat.revues.org/12995>

لتغطية الأعداد المتزايدة من التلاميذ، أما السبب الحقيقي لرفض الفرنسيين تعليمهم هو أنهم يعتبرون التعليم وسيلة للترقية الاجتماعية، لا سيما أنه يحمل قيما ثقافية وفكرية تنشر الوعي وتهدد أمن الفرنسيين. حيث ورد عن أحدهم قوله: "تعليم الأهالي سيؤدي بهم إلى أن يصرخوا صرخة جماعية هل الجزائر عربية". فتشكلت معارضة من المستوطنين اشتدت أكثر في العهد الجمهوري الثالث، وزاد من عدائها اندلاع الثورات الشعبية، فتخوف الكولون من ارتقاء الجزائري إلى مستوى المواطن الفرنسي فيصبح منافسا له في النفوذ والسلطة.

تم التراجع عن مشروع المدرسة الإلزامية بعرقلة الكولون، فظل الجزائريون حتى أوائل القرن العشرين بعيدين عن المدارس، وما أنجز من مدارس كان في إطار سياسة ذر الرماد في العيون، حيث اتبع في إنشائها المستوى الاجتماعي للأهالي، وأبعد عنها أبناء الفقراء، وحصرت جغرافيا في بلديات محدودة فمن أصل 73 بلدية وجد في 35 منها في كافة القطر الجزائري وتركزت معظمها في منطقة القبائل بغرض إدماجها، وساد الاعتقاد أن المدرسة أحسن وسيلة لتحقيق سياسة الإدماج والفرنسة، وهذا ما يعني القضاء على ثقافة ولغة الجزائريين، وهكذا يتم كسب جيل جديد عن طريق المدرسة، ويتمكنون من إحكام السيطرة على الوضع، ويتركز نفوذهم وحكمهم في البلاد. ورد في أحد التقارير أن بناء مدرسة أفضل من فيلقين لإقرار الأمن.¹

وقد ظل تعليم الأهالي في النسيان ولم تهتم به لا البلديات ولا الحكومة العامة، وانجر عن ذلك تردي المستوى الثقافي والتعليمي، فكانت الميزانية المخصصة لتعليم الأهالي ضئيلة جدا، إذ لم تتجاوز ربع ما هو مخصص لتعليم الأوروبيين، أو ربع الاعتمادات المالية المدرجة في لسلك الأمن والقمع سنة 1938، مقارنة بين ما يعطى لأبناء المعمرين والجزائريين فالنتيجة توضح الهوة الكبيرة بينهما، فالأول تطبق عليه البرامج السارية المفعول في فرنسا، أما الثاني فهو لفظ بلا معنى وجسد بلا روح، كان تعليم الأوروبيين واسع الانتشار وتطبق عليه الإيجابية، فلا تكاد تخلو قرية من مدرسة، أما الجزائريين الذين هم في سن التمدرس كانوا يتسكعون ويمتهنون مهنا حقيرة وهم بهذه الأعمال الوضيعة لا يجدون أماكن في المدارس الفرنسية.

وعشية الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال بلغت نسبة التلاميذ الجزائريين في المدارس الابتدائية 6 % ، أما في التعليم الثانوي فلم يتجاوز عددهم 776 تلميذا، ويتناقص هذا العدد بحدة في التعليم العالي، فجامعة الجزائر ظلت فرنسية الروح والمحتوى والهدف، فمن أصل 1813 طالب² لم يكن بها سوى 77 طالب جزائري محظوظ، ولم تتوقف سياسة فرنسا المتصلبة إزاء تعليم الأهالي عند هذا الحد بل امتدت أساليبها الردعية إلى جعلهم جاهلين بمنابع العلم وروافده، ومن ذلك أنها حاربت التعليم الحر الذي بدأ يشهد نهضة بعد الح الع 1، حيث تكفلت به جمعية العلماء، فلم تغفل عن ذلك وراحت تضايق العلماء يقول إبراهيمي بهذا

¹ لمزيد من التفاصيل حول السياسة المدرسية الاستعمارية اتجاه المسلمين راجع كتاب شارل روبر أجرون القيم: تاريخ الجزائر المعاصرة ج2، من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص ص 241-261.

² سميرة نقادي: المرجع السابق.

الصدد:" كلما زادت الأمة إقبالا على تعلم لغتها ودينها، زادت الحكومة الفرنسية في القيد تضيقا، لو أنها نفذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عربي واحد".¹

وبصدد التضيق على العلماء فقد وقفت بنفسي في أرشيف ماوراء البحر بمدينة أكس أون بروفانس Archives nationale d'outre-mer à Aix-en-Provence جنوب فرنسا على تقارير تتعلق بعناصر الشرطة السرية كانت تفرض رقابة لصيقة على أعضاء جمعية العلماء المسلمين وتتبع خطواتهم أينما ذهبوا وحلوا، وهي تقارير مفصلة تتضمن أفعال وأقوال هؤلاء العلماء، وهي تبين بجلاء تخوف الاستعمار من هذه الفئة، التي كانت تحوم الشكوك حولها بإمكانية تأليب الشعب وتحريضه على التمرد والعصيان.

وقد أخذت عدة إجراءات تمنع فتح مدرسة لتعليم القرآن إلا بترخيص، وأصدرت سلطات الاحتلال عقوبات صارمة لمن يخالف ذلك تتراوح بين الحبس والغرامة أو معا، فقد وصل عدد المعلمين الذين حوكموا إلى 27 معلما سنة 1948، وظل التعليم العربي يراوح مكانه حتى سنة 1944 حين سعى دوغول إلى إيجاد تعايش سلمي تحت الحكم الفرنسي حيث أصدر قرارات 7 مارس 1944 التي نصت إحدى القرارات على أنه لكل جزائري بلغ سن التمدرس الحق في التعليم، فكانت وراءه ضغوط تهدف إلى استمالة الأهالي وكسب ودهم والاستجابة لمطالب الحركة الوطنية، وقد تضمن القرار إنشاء 20 ألف قسم مدرسي تستوعب مليون تلميذ على مدى 20 سنة أي حتى سنة 1965، وهو حق يمنح لكل جزائري بلغ سن التمدرس، واعتبره دوغول برنامجا طموحا يلي حاجيات الأهالي، لكن الحكم على هذا هو معرفة ما تحقق ميدانيا فهل من السهل تطبيق هذا المشروع؟.

وفي سنة 1954 كانت نسبة الجزائريين الذكور المتعلمين حوالي 9 % يعرفون الكتابة والقراءة وما بين 1 و 2 % من الإناث، وهذا دليل كاف على الجوانب الخفية من سياسة فرنسا، وقد اعترف بذلك وفد فرنسي أثناء زيارته للجزائر حين صرح رئيس هذا الوفد بقوله أنه وزملاءه رأوا بأعينهم أن مليوني جزائري لا يجدون أي مقعد دراسي، وذلك بعد أن بسط الاحتلال يده على المدارس، وهم لا يشاركون في التعليم إلا بنسبة 10% هذه السنة التي تمثل تاريخ اندلاع الثورة التحريرية التي أوردنا فيها الإحصائيات والنسب السابقة، كي ندرك أحد أهم عوامل تفجيرها وهو الجهل المتفشي في أوساط الشعب، فالطفل الجزائري كان محروما من الذهاب إلى المدرسة، حيث تظهر بعض الدراسات أن نسبة التمدرس في صفوف الجزائريين واحد من 10 أطفال في المدن، وطفل واحد من 50 إلى 70 طفل في الأرياف.²

اتبع المجتمع الجزائري استراتيجية النكوص والتموقع من أجل الحفاظ على هويته، فكان شغله الشاغل هو الحفاظ على تقاليد الأجداد، ينهل منها عناصر الصمود والبقاء كوسيلة للوقوف أمام سبيل المشروع الاستعماري الجارف. وكانت معارضة الجزائريين للسياسة الاستعمارية في الميدان الثقافي معارضة شديدة من حيث جوبهت هذه السياسة بمقاومة شديدة المراس، خاصة لما علموا هدف فرنسا وسياستها الرامية إلى فرنسة الشعب الجزائري فكرا ولسانا وروحا، لذلك لم يستسلموا للأمر المفروض عليهم، بل واجهوه

¹ لمزيد من المعلومات حول الموضوع راجع، عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، د. م. ج. الجزائر، 2007.

² شارل روبر أجرون: المرجع السابق، ص ص 241-261.

بما يستحق، فقاطعوا المدرسة الفرنسية خاصة في المناطق الريفية والبوادي، واعتبروا الانتساب إليها مدخلا إلى التنصير والمسح الثقافي. فلم يتوان الجزائريون في مناهضة المخططات الاستعمارية لاسيما الثقافية منها بصلافة منذ نزول المحتل أرض الوطن، ويمكن أن نستحضر هنا الصور المعبرة عن البطولات في التصدي للمحتل، فقد كان نفور الجزائريين واشمئزازهم من الأجنبي يزداد تبعا لزيادة السياسة الاستعمارية.¹

وأمام هذا وجد الجزائريون أنفسهم مجبرين على مقاطعة الثقافة الفرنسية في جميع مظاهرها، والمحافظة على ثقافتهم حتى في أيام الثورات، إذ كان الفرنسيون ملكوا الأرض وألحقوها بفرنسا باعتبارهم يملكون القوة، فإنهم لم يستطيعوا ملك العقول والقلوب التي ظلت تمتلئ حقا، وتبحث عن فرصة للانتقام، فانتصارهم العسكري لا يعني إخضاع النفوس، فقد كان رد فعل الجزائريين على هذه السياسة حاسما في شكل صراع بدأ يوم بدأ المحتل يفرض لسانه، وأسلوبه في الحياة، مستعملا المدرسة والمستشفى والمعلم والطبيب. لقد كان العقدان الأوليين من الاحتلال محل مجابهة حقيقية بين الطرفين، حيث كان المستعمر ينشئ المدارس فلا يتردد عليها التلاميذ أبناء الوطن، وقيم المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى الجزائريين.

وتبدوشدة المقاومة في الفترة الأولى التي تزعمتها الزوايا والطرق الصوفية التي لعبت دورا أساسيا في المعركة، من خلال حشد الجزائريين حولها وساهمت في تعليمهم وتأليهم ضد المدارس الفرنسية كي يرفضوا ارتيادها، ولا يمكن القول من خلال المقاومة والمقاطعة التي أبدتها الأهالي أن الثقافة الجزائرية بقيت بعيدة عن تأثير ثقافة العدو، لأنها مع مرور الوقت أصابها صدمة الاحتلال التي ما فتأت تتطور حتى أصابها في صميمها. فإن لم تمت فإنها توقفت عن النماء، لاسيما بعد خصوبتها وانتعاشها في عهد سابق، فبعد سبعين سنة من الاحتلال حدث الجفاف الثقافي والقطيعة التي حاول الاستعمار فرضها على التراث الإسلامي. ويمكن إضافة التدهور الاقتصادي وسوء الحالة الاجتماعية جعل منحى الثقافة يشهد التراجع والتقهقر، فبدأت المقاومة الصامته والعلنية التي تبناها الجزائريون تضعف، فالذين كانوا يرفضون في السابق إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، أدركوا أهمية التعليم لا سيما من الأسر الأرستقراطية التي كانت تخدم الاستعمار الفرنسي والتي كانت تنعم بالخيرات على حساب السواد الأعظم من الفئات الشعبية التي كانت تعاني الفقر المدقع.

اتضح للجزائريين مدى أهمية التعليم في حياتهم اليومية كأداة تعامل مع الفرنسيين، ووسيلة للحصول على عمل، وحتى وإن استمرت هذه المقاومات في الأرياف فإن المدن عرفت إقبال الأهالي على المدارس الفرنسية بنسب متزايدة، فقد أدركوا قيمته لاسيما أنهم ميزوا بين فرنسا كاستعمار، وثقافتها كحضارة وتمدن، ولهذه الأسباب شرع الأعيان في رفع العرائض تدعو إلى تعليم الجزائريين حتى وإن كان فرنسيا، وفي خضم ذلك برزت مطالب رفعها النواب الممثلين في مختلف المجالس،² نذكر منهم محمد بن رحال الذي دافع عن التعليم الفرنسي والثقافة الإسلامية التي لا تتعارض مع الثقافة الفرنسية، وكانت له صلوات مع مسؤولين فرنسيين،

¹ لمزيد من التفاصيل راجع، آسيا بلحوسين رحوي: المرجع السابق.

² لمزيد من التفاصيل حول السياسة التعليمية الاستعمارية راجع دراسة، إيفون توران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.

وقد لخص الوضع الثقافي في الجزائر في قوله: "إن التعليم الإسلامي لا يوجد في الجزائر عدا في حالته الابتدائية والزوايا والمساجد، وفي حالته التمهيدية في مدارس تلمسان، قسنطينة والجزائر." ومع ظهور بوادر العمل السياسي والثقافي نشطت الجمعيات والنوادي الثقافية، وأولت ميدان التعليم العناية الفائقة مثل الجمعية التوفيقية، والراشدية، ونادي صالح باي. حيث كانت كلها تخصص شطرا كبيرا من نشاطها للجنسين معا. تزايدت المطالب التعليمية أكثر بظهور الفتيان الجزائريين المتشبعين بالثقافة الفرنسية، وأكدوا على إلزامية التعليم وضرورته للجزائريين، بهدف إخراجهم من الجهل المتفشى في أوساطهم، وهذا أحد روادهم فرحات عباس يصرح بقوله: "إن التعليم يجعل منا رجالا قادرين على فتح بيوت، وتربية أولادنا تربية سليمة، كما يسمح لنسائنا بتربية الأبناء بالوسائل العصرية، كما أن ذات التعليم يعمل على إخراجنا من العصبية والجمود."

وبرزت في الساحة السياسية والثقافية النخبة المثقفة، بعد الح الع 1، في شكل تيارين متزامنين: التيار الإصلاحي ناطق بالفرنسية، والآخر محافظا متشعبا بالثقافة والحضارة العربية والإسلامية، عمل كل منهما على تحقيق رغبات الشعب وتلبية مطالبه وكان الأمير خالد من المثقفين الأوائل الذي لم تمنعه ثقافته الفرنسية من التمسك بالثقافة الوطنية، وكانت فترة العشرينيات من ق 20 بداية مرحلة جديدة من المقاومة الثقافية، فبعد صمود الزوايا والمساجد طوال القرن 19 والتي كانت وراء قيام المقاومات الشعبية، ظهرت مرحلة جديدة قادتها النخبة التي ظهرت على مسرح الأحداث متأثرة بعوامل خارجية وأخرى داخلية، فالأولى قادها العلماء المسلمون الذين هيكلا أنفسهم ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،¹ التي تأسست عقب الاحتفالات المنوية للاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: "من المعلوم أن الأمة الجزائرية هبت بعد مرور قرن من الاحتلال لتأخذ قسطا من الحياة من نواحي عديدة وخصوصا الحياة الدينية والعلمية."²

فقد أثارت هذه الاحتفالات سخط الجزائريين بحدّة، حيث اعتبرت ضربة في صميم الأمة وإهانة وتحدي صارخ لمشاعر شعب بأكمله. وكما تقول الحكمة رب ضارة نافعة، فقد حفزت هذه الاحتفالات همّة النخبة الواعية من الجزائريين لاستغلال الظرف والشروع في بعث الأمة، وإرساء مشروع ثقافي وطني يرد على أوهام المؤرخين الفرنسيين الذين أنكروا ذاتية وهوية الجزائريين، فبدأت تبرز أولى الكتابات التاريخية الوطنية توضح وجود الوطن منذ العصور القديمة، وتؤكد تاريخ الجزائر العريق وتبرز بطولات زعمائه عبر التاريخ، وكان من الرعيل الأول مبارك الميلي وتوفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي وعلي دبوز ومحمد بن شنب وغيرهم،

¹ قامت السلطة الاستعمارية باغتيال الشيخ كحول ووجهت أصابع الاتهام لأحد شيوخ جمعية العلماء المسلمين وهو الشيخ العربي التبسي، بغية النيل منه ومن الجمعية.

² لمعلومات أكثر حول نشاط عبد الحميد ابن باديس الإصلاحي راجع، عمار الطالبي: آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية، ط3، الجزائر، 1998.

ورغم أنهم كانوا محرومين من التعليم الجامعي إلا أن كتاباتهم جاءت مفعمة بالعاطفة الوطنية واستطاعت مؤلفاتهم أن تؤكد الشخصية الجزائرية وتعبّر عن وجودها، فقد أصابت المحتل في الصميم.¹

شرعت جمعية العلماء في مباشرة عملها الإصلاحي وفق شعارها المعروف "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، فقد ضحى قادتها بنعيم الحياة وزخرفها، مسخرين طاقاتهم في الوعظ والإرشاد مدافعين عن القيم الجزائرية التي تشكل الهوية الجزائرية، فكانت حاور برنامجها الإسلام الذي يجب على إصلاح عقائده وصد العدوان عن معابده وأوقافه، كما تصدت بشجاعة كبيرة وجرأة لا نظير لها في مواجهة الطرقيين أصحاب الطرق الصوفية الذين كانوا منغمسين في طقوس الجهل والسحر، ناشرين البدع والخرافات في أوساط المجتمع الذي التف حولها لجهله، وكانت السلطات الاستعمارية تقف وراء هؤلاء الطرقيين وتشجعهم وتوفر لهم الحماية، في حين كانت تتعرض للعلماء بالتضييق والنفي والسجن والتغريم وأحيانا بالاعتقال كما فعلت لأحد المفتيين، حيث اغتالته ولفقت التهمة لأحد مشايخ جمعية العلماء حتى تحدث التصدع والانقسام في صفوفها، إلا أن هذه الجمعية كانت تدرك نوايا الاستعمار الخبيثة، فكانت تتعامل معه بحذر وحيطة كبيرين وبذكاء حتى تتجنب المواجهة معه ولا تمنحه الحجة لحل الجمعية وتوقيف نشاطها.²

كما عملت على إحياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها والدفاع عنها، والتمسك بالوطنية الجامعة بين الإسلام والعروبة، فخاضت في سبيل ذلك حربا مكشوفة على الاستعمار وأذنابه، وكشفت عن سياسته في محاربة الإسلام وسعها جادة في فرنسة الشعب وإدخال المظاهر الدخيلة على عاداته وتقاليد ودينه وبصفة عامة حاربت الجمعية بهوادة سياسة التغريب الثقافي بإتباع أساليب ووسائل ذكية وفعالة معتمدة في ذلك على الناشئة وحرصها على تكوينها تكوينا دينيا سليما لكي يتسنى لها التصدي مستقبلا لمشاريع المحتل الرامية إلى طمس معالم الشخصية الجزائرية، وأحسها نجحت في هذه السياسة من خلال إعداد جيل نوفمبر 54 الذي فجر الثورة وشق طريقه نحو الاستقلال.³

وبذلك يمكننا القول أن جهود جمعية العلماء وغيرها من التيارات الوطنية قد كللت بالنجاح، حيث استطاعت النهوض بالجزائر التي بدأت تشهد صحوة حقيقية لم تعرفها منذ زمن بعيد،⁴ فأيقظت الجزائريين من السبات وأحيت الضمائر الميتة، ودفعت بالأمة إلى حفظ تراثها من المسخ ومن التحريف، كل هذا بتنظيمات ووسائل جندتها لنشر أفكارها من مدارس وصحافة ونوادي ثقافية ومساجد، وكان أهم ميدان ركزت عليه جمعية العلماء جهودها ميدان التربية والتعليم، كونه وسيلة تثقيف وتوعية دينية ووطنية في جميع الفئات صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا، إيمانا منها أن بذور الوطنية يجب أن تزرع في نفوس الأطفال، وذلك ردا

¹ ظهرت كثير من الكتابات والدراسات والأبحاث حول هذه الشخصيات ودورها في الحركة الإصلاحية ونهضة الجزائر أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر دراسة: عبد الرحمان الجيلالي: محمد بن شنب حيات وأثاره، م. و. ك. الجزائر، 1983.

² حول دور جمعية العلماء في النشاط التعليمي أنظر، رابح تربي: التعليم القومي والشخصية الوطنية (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 239-242.

³ أنظر، أبو القاسم سعد الله: خارج السرب، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2009.

⁴ خاض الشيخ ابن باديس ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حربا ضروسا ضد السياسة الاستعمارية الثقافية من خلال الجرائد والمجلات التي كانت تصدع للحق كالشهاب والبصائر والمنتقد وغيرها، رغم قيود الإدارة الاستعمارية وضغوطاتها.

على المدرسة الفرنسية التي كانت تعلم الأطفال الجزائريين تاريخ فرنسا بدل تاريخ الجزائر. ورغم الصعوبات والعراقيل فقد كانت مدارسها تناهز 150 مدرسة يقارب عدد من يرتادها 50 ألف تلميذ من الجنسين، وقد كلل عملها الدؤوب بتأسيس معهد عبد الحميد بن باديس¹ الذي يعد بمثابة جامعة. لقد أدت سياسة الاستعمار الثقافية إلى بروز مقاومة سياسية وثقافية، تجلت في رفض الجزائريين ثقافة فرنسا طيلة عقود بحسناتها وسلبياتها، وتمسكوا بهويتهم وثقافتهم المتميزة عن حضارة فرنسا وثقافتها، ولم يستجب لسياستها سوى فئة قليلة ممن باعوا ضمائرهم من بني وي وي، الذين تجاوزهم الزمن مع مرور الوقت لاسيما بعد اندلاع الثورة التحريرية التي فرقت شملهم.²

خاتمة:

مما سبق يمكن أن نستنتج أن الجزائر خلال العهد العثماني كانت الحركة الثقافية فيها نشيطة، على غرار البلدان العربية والإسلامية الأخرى، على الرغم من عدم جعل السلطة العثمانية مهمة التعليم والثقافة من مجالات اهتماماتها وانشغالاتها، نظرا لطابع الدولة العسكري ن جهة وحالة الحرب التي طبعت تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني مع أوروبا، مما جعلها تتموقع في موقع المدافع عن نفسه الذي تترىص به الأعداء وتنتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليها وهو ما حصل بالاحتلال الفرنسي.

كما نستنتج أن النظام العثماني سقط في أيدي المحتل الفرنسي بسبب أن الدولة لم تأخذ بأسباب التقدم المادي في مجال الحروب والتكتيك العسكري، وهذا في الواقع لم يكن خاص بالجزائر فقط، وإنما كل الأقطار العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني وقعت فريسة بين أنياب الاستعمار الأوروبي، بل حتى الدولة العثمانية لم تسلم من التآمر الأوروبي عليها ونجحت هذه الدول في الإطاحة بها مع مرور الوقت. يمكن الاستنتاج كذلك أن الجزائريين لم ينتظروا من السلطة العثمانية أن تبني لهم المدارس والمعاهد والزوايا للقيام بالنشاط التعليمي الذي يعد جزء أساسي في الشخصية العربية والإسلامية التي يحثها الإسلام على طلب العلم " أطلوا العلم من المهدي إلى اللحد"، فراحوا يعتمدون على أنفسهم وعلى إمكانياتهم في القيام بواجب تعليم الأبناء و تثقيفهم، وبفضل تضافر الجهود جهود العائلات والأسر والأفراد وبعض الحكام الذين شجعوا الحياة العلمية أصبح للجزائر علماء مشاهير نافسوا علماء الأقطار العربية الأخرى وتبوأوا المكانة الرفيعة.

ويمكن الاستنتاج كذلك أن الشعب الجزائري استهدف في دينه ولغته وثقافته وتاريخه وحضارته وعمقه، من طرف الغدار الاستعمارية التي راحت تشن عليه حربا شرسة، في محاولة لطمس معالم حضارته وتشويه تاريخه، فحاربت الدين الإسلامي واللغة العربية، وبالمقابل عملت على تنصير الشعب وتفتيه دينه، وفرضت اللغة الفرنسية والثقافة والحضارة الغربية، لكن الشعب الجزائري قاوم هذه السياسة كما قاوم سياسة التوسع العسكري والاستيطاني بقوة السلاح، فتصدى العلماء للسياسة الثقافية التغريبية الاستعمارية،

¹ لمزيد من الإطلاع على جهود بان باديس في التعليم والإصلاح الاجتماعي راجع، راجح تركي: الشيخ عبد الحميد رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1981.

² لمعلومات أكثر حول جمعية العلماء ونشاطها الثقافي والإصلاح راجع، عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ونجحوا في إفشال مشاريعه التهديمية، وهذا باعتراف القادة الفرنسيين ورجال الدين المبشرين، حيث لم يجدوا وسيلة للقضاء على الدين واللغة العربية، واعتقد أن الفضل في المحافظة على العادات والتقاليد الحضارية الجزائرية والمحافظة على ارتباط الجزائر الحضاري (الإرث الأمازيغي العربي الإسلامي)، يوجد الفضل فيه إلى العلماء والزوايا والمدارس والمساجد التي كانت تتحدى السياسة الاستعمارية، الرامية إلى محو آثار الانتماء الحضاري للشعب الجزائري.